

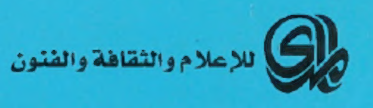




ليونيد أندرييف

قصّةُ سبعةِ شُنِقوا

ترجمة: نوفل نيوف



الكتاب للجميع

ليونيد أندرييف

قصّةُ سبعةٍ شُنِقوا

ترجمة : نوفل نيوف

طبعة خاصة
توزع مجانا مع جريدة (السفير)

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
٢٠١٦



مجاناً مع جريدة السفير
تصدر عن شركة السفير ش.م.ل.

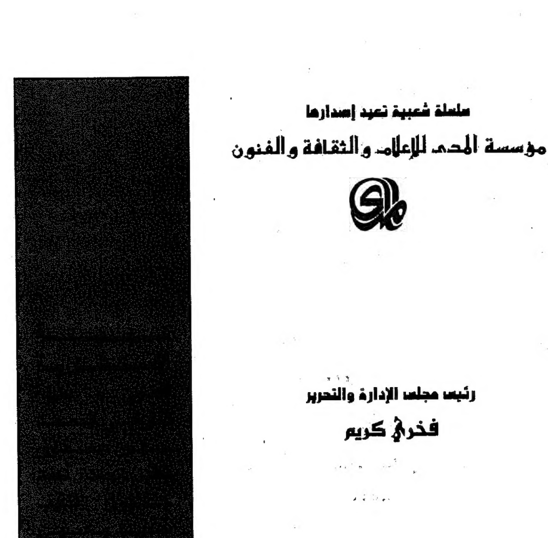
■ السفير

رئيس تحريرها: طلال سلمان
المدير العام: احمد طلال سلمان
المدير المسؤول: غاصب المختار

الكتاب للجميع

■
التحرير والإدارة: شارع منيمنة / الحمراء/ بيروت
فاكس ٠١٣٥٠٠٠٥ - ٠١٧٤٣٦٠١
ص.ب: ١١٣/٥٠١٥/الحمرا - بيروت ١١٠٣٢٠١٠
انترنت http: //www.assafir.com
Coordinator@assafir.com

- تمت الطباعة في مطابع جريدة السفير
- تلفاكس ٩٦١-١٧٤٣٦٠١/٢/٣/٤+



سلسلة شعبية تعيد إصدارها
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

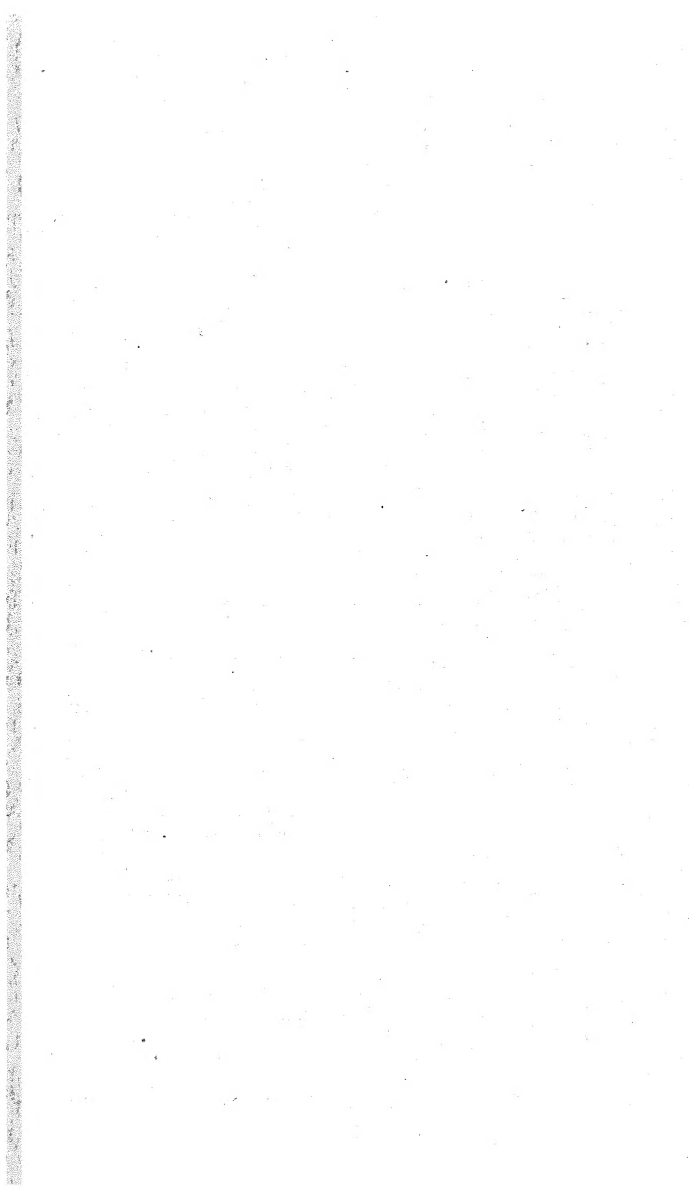
رئيس مجلس الإدارة والتحرير
فخري كريم

بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور
الطابق الأول - تلفاكس: 752616 - 752617
www.daralamada.com Email: info@daralmada.com

سورية - دمشق ص.ب.: 8272 أو 7266 - تلفون:
2322275 - 2322276 - فاكس: 2322289

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O. Box: 8272 or 7366.
Tel: 2322275 - 2322276 - Fax: 2322289

بغداد - أبو نواس - محلة 102 - زقاق 13 - بناء 141
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون



مهداة إلى تولستوي ل. ن.

١. في الواحدة ظهراً، معاليكم

لَمّا كان الوزير إنساناً مفرِطَ البدانةَ، ميّالاً إلى الإصابة بالسكتة الدماغية، فإنهم نبّهوه، بكل أنواع الحذر، تفادياً لاستدعاء اضطرابات خطيرة لديه، إلى أنه يَجري الاستعداد للقيام بعملية اغتيال جدية تستهدفه. وحين رأوا أن الوزير تلقّى الخبر بهدوء، بل وببسمة، أخبروه بالتفاصيل أيضاً: سوف تقع عملية الاغتيال يوم غد، في الصباح، عندما يخرج ومعه التقرير. ثمة بضعة أشخاص من الإرهابيين الذين وشى بهم أحد المخبرين، وهم الآن موجودون تحت مراقبة يقظة من قبل العملاء السريين. إنهم سيجتمعون في الساعة الواحدة ظهراً مزوّدين بالقنابل والمسدّسات، وينتظرون عند المدخل. وهناك سيُلقى القبض عليهم.

ـ مهلاً، ـ تعجّب الوزير، ـ ومن أين يعرفون أنني سأذهب في الساعة الواحدة ظهراً لإلقاء تقرير، ما دمت أنا شخصياً لم أعرف بذلك إلا قبل يومين من الآن؟

فبسط رئيس الحرس ذراعيه على نحو غير محدد:

ـ في الواحدة ظهراً بالضبط ، معاليكم.

وبين متعجِّبٍ ومبارِكٍ ما تقوم به الشرطة التي أحسنت إعداد كل شيء هزّ الوزير رأسه، وافترّت شفتاه السمينتان عن بسمة عابسة. وبهذه البسمة نفسها تقبّل الأمر طائعاً، غير راغب بعرقلة عمل الشرطة. وبعد ذلك تهيّأ بسرعة

وذهب لقضاء الليلة في قصرٍ مضياف يملكه أحد الغرباء. كذلك نُقلت زوجته وولداه الطفلان من البيت الخطير الذي سينتظره الإرهابيون بالقرب منه.

وبينما كانت الأضواء مشتعلة في القصر الغريب، وكان أشخاص بشوشون يعرفهم، ينحنون له بالتحية، ويتبسمون ويستنكرون، أحسَّ الوزير بشعور مثير طيِّب، وكأنه قد أُعطيَ أو سوف يُعطى الآن مكافأة غير متوقّعة. إلا أن الناس رحلوا، والأضواء انطفأت، وعبْر الزجاج العاكس انتشر من المصابيح الكهربائية على السقف والجدران ضوءٌ مخرَّمٌ، شفّاف. ولأن الوزير غريب عن هذا البيت بلوحاته وتماثيله وسكينته الآتية من الشارع، ولأنه هادئ الطبع، حائر، فإنه أيقظ في نفسه فكرة مقلقة عن عدم جدوى المغاليق والحراسة والجدران. وعندئذ في الليل، في سكينة غرفة النوم الغريبة ووحشتها، أحسَّ الوزير برعب لا يطاق.

كان يشكو من كِليتَيه، إذ عند كل اضطراب قويّ كان جسمه يمتلئ بالماء، فينتفخ وجهه ورجلاه ويداه، ويجعله ذلك يبدو أكثر ضخامة، وأكثر سمنة وبدانة. والآن وهو مرتفعٌ، مثل جبل من اللحم المنتفخ، فوق نوابض السرير المضغوطة، كان حزيناً حزنَ رجل مريض، يشعر بوجهه المنتفخ وكأنه ليس وجهه، و لم يفارقه التفكير بذلك المصير القاسي الذي كان يُعدُّه له الناس. وواحدة تلو أخرى تذكّر جميع الحوادث المرعبة التي وقعت في الماضي القريب، حين كانوا يُلقون القنابل على من هم في مقامه، بل وفي مقام من هم أعلى منه، فتمزِّق تلك القنابل الجسم إرباً، وتنثر الدماغ على الجدران القرميدية الوسخة، وتقتلع الأسنان من أماكنها. وبسبب هذه الذكريات كان يخيَّل له أن جسمه البدين، المريض، المستلقي على السرير بات غريباً عنه، وصار يعاني من قوة نار الانفجار. وخُيِّل له وكأن يديه تنفصلان عند الكتفين عن جسمه، وأسنانه تتساقط، ودماغه يتقطَّع إرباً، ورجليه تتخدَّران وتستلقيان مستسلمتين، وأصابعهما مرفوعة إلى فوق، كما هو الحال عند الموتى. وجهِد لتحريك

جسمه، وتنفّس بصوت عالٍ، وسعل، لكي لا يشبه الميت بشيء، وأحاط نفسه بضجيج حيّ من صرير النوابض، وحفيف اللحاف؛ ولكي يبيّن أنه حيٌّ تماماً، و لم ينلْ منه الموت مثقال ذرّة، وأنه بعيد عن الموت مثل أي إنسان آخر، راح يقول في سكينة غرفة النوم ووحشتها بصوت خشن، عالٍ ومتقطّع:

- أحسنتم! أحسنتم! أحسنتم!

بهذه الكلمات كان يمدح العملاء السريين، والشرطة، والجنود، وكلّ أولئك الذين يحرسون حياته، وأنقذوه من الجريمة في الوقت المناسب تماماً، وبهذا القدْر من المهارة. ولكنه وهو يتحرّك، وهو يمدح، وهو يسخر بابتسامة عوجاء، مفتعلة قسراً من أجل أن يعبّر عن هزئه بالإرهابيين الفاشلين الأغبياء، لم يكن قادراً على التصديق بعدُ بأنه نجا، وبأن حياته لن تغرُب فجأة وفي الحال. والموت الذي حاكه له الناس والذي لم يكن موجوداً إلا في أفكارهم، في نواياهم، بات وكأنه واقف هنا، وهو الآن يواصل وقوفه، ولن يرحل قبل إلقاء القبض عليهم، وتجريدهم من القنابل والزجّ بهم في سجن حصين. إنه واقف في تلك الزاوية ولا يرحل، لا يستطيع أن يرحل، مثلما لا يستطيع الرحيلَ جنديّ مطيع يقوم بالحراسة وَفقاً لأمرٍ من أحدٍ ما وإرادته.

- في الواحدة ظهراً، معاليكم! - كانت ترنّ في سمعه تلك الجملة التي قيلت له، وتتردد بمختلف نغمات الأصوات: تارة مرحة ساخرة، وتارة غاضبة، وأخرى عنيدة وغبيّة. وكأنما وضعوا في غرفة نومه مائة من أجهزة الحاكي (غراموفون) الميكانيكية، وجميعها تصرخ واحدة تلو الأخرى مردِّدة كلمات هذا الأمر بدأب آلة غبيّ:

- في الواحدة ظهراً، معاليكم.

وهذه "الواحدة ظهراً" غداً، التي لم تكن حتى وقت قريب جداً تختلف عن غيرها من الساعات، و لم تكن إلا حركة هادئة من عقرب الساعات على مينا

ساعته الذهبية، إذا بها فجأة تكتسب درجة من اليقين تنذر بالشر، وتقفز من مينا الساعة وتمضي تعيش على انفراد، وتمتدّ مثل عمود ضخم أسود شقَّ الحياة كلَّها نصفين. وكأنما لم يكن ثمة أية ساعات أخرى من الزمن، لا قبلها ولا بعدها، وحدها فقط تلك الساعة الوقحة والمغرورة كان لها الحق بوجودٍ من نوع خاص.

ـ هه؟ وما الذي تريده؟ ـ لفظ الوزير عبر أسنانه بغضب.

كانت أجهزة الغراموفون تزعق:

ـ في الواحدة ظهراً، معاليكم! ـ وكان العمود الأسود يضحك باستهزاء، وينحني محيِّياً.

كزَّ الوزير على أسنانه، ونهض في سريره، وجلس سانداً وجهه على يديه، ـ حقّاً لم يكن في مقدوره أن يغفو في هذه الليلة الكريهة.

وتصوّر بسطوع مرعب، وهو يضغط على وجهه بكفَّيه المنتفختين المعطَّرتين، كيف كان سينهض في صباح غدٍ وهو لا يعرف شيئاً، ثم يشرب قهوته وهو لا يعرف شيئاً، وبعدها يرتدي ثيابه عند الباب. وما كان لأحد أن يعرف: لا هو ولا حاجبه الذي يقدِّم له معطف الفرو، ولا خادمه الذي يقدِّم القهوة، أن من العبث تماماً أن يشربَ القهوة، وأن يرتدي الفرو ما دام أن ذلك كلّه: معطف الفرو، وجسمه والقهوة التي فيه، سوف يدمِّره الانفجار ويمضي به الموت. وإذا بالحاجب يفتح الباب الزجاجي... هو ذاته، الحاجب اللطيف، الطيِّب، الحنون، ذو العينين الزرقاوين العسكريتين، والأوسمة التي تغطي صدره، هو نفسه، بيديه يفتح الباب الرهيب، يفتحه لأنه لا يعرف أيَّ شيء. الجميع يبتسمون لأنهم لا يعرفون أيّ شيء.

ـ أوهووو! ـ قال فجأة بصوت عال، و أبعد يديه عن وجهه ببطء.

وبينما كان يُلقي إلى العتمة، بعيداً إلى الأمام، نظرة جامدة، متوترة، مدّ يده بالبطء نفسه فلمس زرَّ الكهرباء الناتئ وأشعل الضوء. ثم نهض، ومن غير أن يلبس شيئاً، مشى بقدميه الحافيتين على السجادة، وطاف في غرفة نوم الغرباء التي لا يعرفها، فوجد زرّاً ناتئاً آخر لمصباح في الجدار وأشعله. فسرَّه النور، ووحدهما الفراش المنبوش واللحاف المتكوِّم على الأرض كانا شاهدين على حدوث شيء رهيب لم ينقضِ تماماً بعدُ.

كان هذا المسؤول وهو في ثياب نومه، وبلحيته المهوَّشة بسبب حركاته القلقة، وبعينيه الغاضبتين، شبيهاً بأيِّ عجوز غاضب آخرَ مصاب بأرَق وضيقِ نَفَسٍ شديد. كأنّما عرّاه الموت الذي أعدّه له الناس، وأبعده عمّا كان يحيط به من ترف وروعة ساحرة، فقد كان من الصعب التصديق بأنه يتمتّع بكل هذه السلطة، وبأن جسده هذا، الجسد البشري البسيط، العادي للغاية، كان يجب أن يموت بطريقة رهيبة، في نارٍ ودويِّ انفجار مريع. ومن غير أن يلبس ثيابه أو يشعر بالبرد جلس على أوّل كنبة صادفها، فاستند بلحيته المهوَّشة على يده، وبتركيز وغياب في تأمّلٍ عميق وهادئ ثبّت ناظريه على السقف المزيَّن بالجبصين الذي لم يرَه من قبلُ.

تلك إذاً هي القضية! ذلك إذاً ما جعله يجبن ويضطرب إلى هذا الحد! لذلك إذاً يقف الموت في الزاوية، ولا يريد أن يرحل، ولا يستطيع الرحيل!

ـ حمقى! ـ قال باحتقار ويقين.

ـ حمقى! ـ كرّر بصوتٍ أعلى، واستدار برأسه صوب الباب لكي يسمعه أولئك الذين يقصدهم بكلامه. وكان المقصود أولئك الذين أثنى عليهم قبل وقت قصير بقوله "أحسنتم"، وذلك الذي حدّثه بالتفصيل، وباهتمام فائق عن عملية الاغتيال الجاري إعدادها.

«طبعاً ـ فكّر عميقاً بفكرة سلسة ترسَّخت لديه على حين غرّة ـ فأنا الآن، بعد

أن أخبروني، أعرف وأشعر بالخوف، وإلا لما كنت عرفت أيَّ شيء، ولكنت شربت قهوتي باطمئنان. ولكنْ طبعاً بعد ذلك كان سيأتي الموت. ولكنْ، أأنا خائف من الموت كلَّ هذا الخوف؟ ها أنا تؤلمني كليَتاي، وسوف أموت ذات حين، إلا أنني لا أخاف، لأني لا أعرف أيَّ شيء. غير أن هؤلاء الحمقى قالوا لي: في الواحدة ظهراً، معاليكم. وقد ظن هؤلاء الحمقى أنني سأفرح، ولكنّه، عوضاً عن ذلك، واقف في الزاوية ولا يرحل. وهو لا يرحل لأنه فكرتي. إن ما هو رهيب ليس الموت، وإنما معرفته. فلو كان في مقدور الإنسان أن يعرف بقدْرٍ كبير من الدقة والتحدي اليومَ والساعةَ اللذين سيموت فيهما لتعذّر عليه تماماً أن يعيش. أمّا هؤلاء الحمقى فيحذّرونني: "في الواحدة ظهراً، معاليكم!".

وتخفَّف من ثقل كبير، وراقَ كأن أحداً قال له إنه خالد تماماً ولن يموت أبداً. ولّما عاوده الإحساس بأنه قويٌّ وذكيٌّ بين هذا القطيع من الأغبياء الذين يقتحمون سرَّ المستقبل عبثاً وبوقاحة، راودته بعمقٍ أفكار ثقيلة حول نعيم الجهل تليق برجل هَرِم، مريض، عانى الكثير. ليس مقدَّراً الحيّ، سواءٌ أكان إنساناً أو حيواناً، أن يعرِف يوم أو ساعة موته. لقد كان مريضاً قبلَ مدّة قصيرة، وقال له الأطبّاء إنه سيموت، وإن عليه أن يفصح عن وصاياه الأخيرة، ولكنه لم يصدّقهم. وبالفعل ظلَّ حيّاً. وكان في صباه قد ضلّ في الحياة وقرر الانتحار، فأعدَّ المسدس، وكتب الرسائل، بل وحدّد يوم وساعة الانتحار، ثم غيَّر رأيه فجأة قبل لحظة التنفيذ تماماً. فدائماً في اللحظة الأخيرة تماماً يمكن أن يتغيَّر شيء ما، يمكن أن تظهر مصادفة غير متوقّعة، ولذلك ما من أحد يستطيع أن يقول عن نفسه متى سيموت.

«في الساعة الواحدة ظهراً، معاليكم"، ـ قال له أولئك الحمير اللطفاء. ورغم أنهم لم يقولوا له ذلك إلا لأن الموت قد تمَّ تفاديه، فإن مجرَّد معرفة الساعة التي كان يمكن أن يقع فيها ملأته رعباً. ثمة احتمال كبير بأنهم سيقتلونه ذات يوم، ولكن ذلك لن يكون غداً ـ ذلك لن يكون غداً ـ وبوسعه أن ينام مطمئنّاً، كأنه

خالـد. إنهم حمقى، لم يعرفوا أيَّ قانـون عظيم أزاحوه عن مكانه، وأيّ ثقب فتحوه حين قالوا لي بلطفهم المعتوه ذاك: "في الواحدة ظهراً، معاليكم".

ـ كلا، ليس في الواحدة ظهراً، معاليكم، وإنما في وقت غير معروف. في وقت غير معروف. ماذا؟

ـ لا شيء، ـ أجاب السكون. ـ لا شيء.

ـ كلا، إنك تقول شيئاً ما.

ـ لا شيء، سخافات. إنني أقول: غداً في الواحدة ظهراً.

وبحزن فجائي حادّ في قلبه أدرك أنه لن يعرف النوم، ولا الطمأنينة، ولا الفرح قبل أن تمرَّ هذه الساعة اللعينة، المقتطعة من مينا الساعة. ومثل خيالٍ لمعرفة ما لا ينبغـي أن يعرفه أيّ كائن حيّ، كان واقفاً هناك في الزاوية، وكان كافياً لحَجب الضوء وحشرِ الإنسان في ظلّام دامس من الرعب. كان رعب الموت الذي أُثيرَ مرة ينتشر في الجسـم، فيتسرّب إلى العظام، ويُطلّ برأسـه الشاحب من جميع مسامّ الجسد.

إنه الآن لا يخاف من قتَلَة الغد، فقد اختفى هؤلاء، طواهم النسيان، وذابوا في حشـد من الأشـخاص الأعداء والظواهر المحيطة بحياته البشرية، وإنما يخاف من شـيء فجائي وحتمي، من سكتة دماغية، من سكتة قلبية، من أبهرِ ما رقيق غبي يعجز فجأة عن تحمُّل ضـغط الدم فينفجر مثل قفّازٍ ضيّق جداً على أصابع منتفخة.

وكانت رقبته القصـيرة السـمينة تبـدو مخيفـة، وكان مخيفاً النظر إلى أصـابعه القصـيرة المنتفخة، والإحساس بأنها قصـيرة، وبأنها مليئة بماء قاتل. ولئن كان عليه فيما مضـى أن يتحرّك في الظلام لكي لا يكون شبيهاً بميت، فقد تبدّى له الآن، في هذا الضـوء السـاطع، المخيف، البارد في عدوانيته، أنه لَشيءٌ رهيب

ومستحيل أن يتحرّك من أجل أن يتناول لفافة تبغ، أو أن ينادي أحداً. كانت أعصابه تتوتّر. وكان كل عصب يبدو شبيهاً بسلْك مقوّس متوثِّب وعلى قمّته رأسٌ صغير فيه عينان جاحظتان من الخوف، مفتوحتان بتشنّجٍ، مختنقتان، وفمٌ لا ينطبق. كان الهواء مقطوعاً.

وفجأة رُنَّ جرسٌ كهربائي في العتمة وسط الغبار وأعشاش العنكبوت، في مكان قريب من السقف. راح اللسان المعدني الصغير يقرع حافّة الجرس بتشنّج، مرعوباً، ثم أخذ يصمت، ثم راح يضطرب مرة أخرى برنين وخوف لا ينقطِع. كان ذلك معاليه يقرع الجرس من غرفته.

تراكض الناس. واشتعل بعض المصابيح الكهربائية هنا وهناك، في الثريّات وعلى الجدران. كان عددها قليلا لا يكفي لإشاعة النور، ولكنّه كان كافياً لظهور الظلال. لقد ظهرت في كل مكان: فانتصبت في الزوايا، وامتدّت على السقف، وطفقت تترجرج وهي تتشبّث بكل نتوء، وتستلقي على الجدران. وكان من الصعب على المرء أن يفهم أين كان موجوداً في الماضي كل هذه الظلال اللامتناهية العدد، القبيحة، الصامتة، هذه الأرواح البكماء التي لأشياء بَكماء.

صوتٌ مرتعش، خشنٌ قال شيئاً بصوت عال. ثم طلبوا طبيباً بالهاتف. فقد كنت حالة الوزير سيئة. كما استدعوا أيضاً زوجة معاليه.

٢. الحكم بالإعدام شنقاً

حدث ما توقّعته الشرطة. فقد تمّ القبض على أربعة إرهابيين، ثلاثة رجال وامرأة، مسلّحين بقنابل وأجهزة جهنّميّة ومسدّسات، عند مدخل البناية تماماً. أمّا الشخص الخامس فامرأة تمّ اعتقالها في شقة للعمل السرّيّ هي صاحبتها. وقبضوا أيضاً على كمية كبيرة من الديناميت، والقنابل شبه الجاهزة للتفجير، والأسلحة. جميع المعتقلين كانوا شباباً في مقتبل العمر. فأكبرهم من الرجال كان عمره ثمانيةً وعشرين عاماً، وأصغر الفتاتين عمرها تسعة عشر عاماً. وقد جرت محاكمتهم في القلعة نفسها التي ساقوهم إليها بعد الاعتقال، وحاكموهم بسرعة، ودون حضور أحد، على جري العادة في ذلك الزمن الذي لا يرحم.

في المحكمة كان الخمسة كلّهم هادئين، ولكنّهم كانوا جدّيين للغاية. فقد كان احتقارهم للقضاة عظيماً إلى درجة أنه ما من أحد منهم كان راغباً في أن يعبّر بابتسامة زائدة، أو بتعبير مبتذل عن المرح لتأكيد جرأته. كانوا هادئين بقدْر ما كان مطلوباً لحماية الروح وكدرِها العظيم الذي يسبق الموت من نظرة الغرباء الشرّيرة والعدائية. كانوا يرفضون الإجابة على الأسئلة حيناً، وحيناً يجيبون بطريقة مقتضبة، بسيطة ودقيقة، كأنهم لا يردّون على قضاة، وإنما على إحصائيين يملأون جداول من نوع خاص. ثلاثةٌ منهم، رجلان وامرأة، صرّحوا بأسمائهم الحقيقية، فيما رفض اثنان التصريح أمام القضاة باسميهما اللذين ظلا مجهولَين. وبالإضافة إلى كل ما جرى في المحكمة، فإنهم كشفوا عن ذلك الفضول الملطّف الذي يظهر مغبّشاً ويكون ملازماً للناس المصابين بمرضٍ عُضال، أو للمأخوذين بفكرة واحدة ضخمة تستولي على كيانهم

كلّـه. كانوا يُلقـون نظرة سريعة، وبمهارة يلتقطون كلمـة تكون أكثر أهمية من سـواها، ويعودون من جديد إلى مواصلة التفكير من نفس المكان الذي توقّف فيه تفكيرهم.

أوّل من جُنّ بسبب القضـاة كان واحداً ممّن صرحوا بأسـمائهم، إنه سـيرغي غولوفـين، ابن عقيد متقاعد، وهو نفسـه كان ضـابطاً. وقد كان سـيرغي في عنفوان الشـباب تماماً، ناصـع البياض، عريض المنكبين، له من قـوة البنية ما يجعل السـجن، وانتظار الموت المحتوم عاجزين عن محو حمرة خدّيه، وتعابيرِ سـعادة الصبا الساذج من عينيه. وكان طول الوقت، يحكّ ـ بين لحظة وأخرى ـ لحيته الشـعثاء التي لم يعتدْ عليها بعـد، ولا يكفّ عن النظر من النافذة مكوّراً عينيه وهما تطرفان.

وقع ذلك في أواخر الشـتاء الذي كان الربيع يرسل بين عواصفه الثلجية وأيامه الباهتة، على شكل بشارة، يوماً مشمساً، دافئاً، صافياً، أو حتى ساعة واحدة، ولكنّها تكون سـاعة ربيعية، فيّاضـة بالشـباب والنور إلى حدّ يصيب عصافير الدوري والشارع بجنون من الفرح وكأنها سكارى آدميّون. والآن عبر النافذة العليـا الملبّـدة بالغبار، والتي لم تنظّف منذ الصـيف الفائت، كنت ترى سـماء فائقـة الغرابة وجميلة: إنها تبدو للوهلة الأولى رمادية أقرب إلى البياض، عليها مسـحة دُخان، وعندما تطيل النظر قليلاً ترى الزرقة فيها آخذة بالظهور، فتبدأ زرقتها الشـفافة تزداد عمقاً وسطوعاً وانتشاراً بلا حدود. ولأنّها لا تُسفر عن كامل وجهها فوراً، بل تحتجب بعفاف وراء غلالة من الغيوم الرقيقة، فقد كان ذلك يجعلها غالية مثل فتاة تحبُّها. وكان سيرغي غولوفين ينظر إلى السماء وهو يعبث بلحيته تارة، ويزمّ عينيه برموشـهما الكثيفـة الطويلة تارة أخرى، ويمعن التفكير بشـيء ما. حتى إن شـيئاً مفرحاً ما جعله مرة يحرّك أصـابعه بسرعة، ويتغضّـن بسـذاجة، إلا أنه أجال طرْفه حواليه وانطفأ مثل شرارة حطّت عليها قـدم. وبطرفة عين تقريباً انبثقت من خلال حمرة خدّيـه، وقبل أن تتدرّج إلى

الشـحوب تقريباً، زُرقةُ موتى ترابية، وانكمشـت الشعرة الرقيقة، وهي تُقتلع من عشـها بأ لم، كما في عناق قويّ، بين أصـابعه التي ابيضّت أطرافها. غير أن فرحـة الحياة والربيع كانت أقوى، إذ ما هي إلا بضـع دقائق حتى تطلّع وجهه الفتي، الساذج إلى سماء الربيع.

وإلى تلك السـماء نفسها كانت تنظر الفتاة الشـابة الشاحبة، المجهولة الاسم، الملقَّبة بـ موسيا. كانت هذه أصغر عمراً من غولوفين، ولكنها بصرامتها وسواد عينيها الصريحتين والأبيتين كانت تبدو أكبر منه سنّاً. وما من شيء كان يُفصح عن عمرها غير رقبتها البضّـة والرفيعة جداً، ومثلها يداها الأنثويتان الرفيعتان، وشـيء آخرُ مراوِغٌ هو الصبا نفسه الذي كان ينبض بهذا الوضوح في صوتها الصـافي، المتناغم، المضبوط بكل دقّة مثـل آلة غالية، وفي كل كلمة بسـيطة، وصـيحةٍ تفصـح عن مضـمونه الموسـيقي. كانت شـاحبة جداً، ولكنْ ليس شـحوبَ الموتى، بل شـحوب ذلك البياض الحارِّ المميَّـز، عندما يكون داخل الإنسـان ما يشبه ناراً ضـخمة قوية، وجسده يشعّ بضـوء شفّاف مثل خزف سيفر[1] الرقيق. كانت جالسة دون حراك تقريباً، لا تزيد على أن تتلمّس خفيةً في حالات نادرة بحركة من أصابعها حزّاً عميقاً على إصبعها الوسطى في يدها اليمنى خلّفه خاتم خلعته قبل حين. ودون حنان وذكريات مفرحة كانت تنظر إلى السـماء لسبب واحد فقط هو أنه في قاعة المحكمة القذرة كلّها كانت هذه القطعة من السماء هي الأجمل، والأنظف، والأصدق لأنها لم تكن تستجوب عينيها عن أيّ شيء.

كان القضاة يعطفون على سيرغي غولوفين، أمّا هي فكانوا لا يطيقونها.

كذلك كان جارها المجهول الاسـم، الملقَّب بـ فيرنر، جالسـاً دون حراك، في

١- الواقعة على مسافة ١٠ كم جنوب غرب باريس والمشهورة بصناعة هذا النوع من الخزف. SEVR نسبة إلى البلدة الفرنسية .

وضعية لا تخلو من غطرسة، ضاماً يديه بين ركبتيه. فإذا كان بالإمكان إغلاق الوجه مثل باب أصمّ، فإن هذا المجهول أغلق وجهه مثل باب وعلّق عليه قفلاً من حديد. كان ينظر بثبات إلى الأسفل، نحو الأرض الخشبية القذرة، وكان مستحيلاً أن يفهم المرء أهو مطمئنٌ أم مضطرب إلى أقصى حدّ، أهو يفكّر بشيء أم يستمع إلى ما يقدّمه العملاء السريون أمام المحكمة من قرائن. لم يكن طويل القامة، وكانت ملامح وجهه رقيقة وطيّبة. كان على قدْر من الرقة والجمال يذكّر بليلة مقمرة على شاطئ البحر في الجنوب، حيث أشجار السرو وظلالها السوداء. وفي الوقت نفسه كان يبعث على الشعور بقوة هادئة ضخمة، وصلابة لا تقهر، ورجولة باردة، جسورة. وكان التهذيب نفسه الذي يعطي به إجاباته المختصرة والدقيقة يبدو خطيراً في شفتيه، وفي نصف انحناءته. وإذا ما كان ثوب السجن يبدو على الآخرين كلهم تهريجاً سخيفاً، فإن ذلك لم يكن ظاهراً عليه البتّة، وما أشدّ ما يكون هذا الثوب غريباً على الإنسان. ومع أنه تمّ العثور على قنابل وأجهزة جهنمية عند الإرهابيين الآخرين، و لم يُعثر عند فيرنر إلا على مسدّسٍ أسود، فإن القضاة كانوا لسبب ما يَعدُّونه الشخص الرئيس ويخاطبونه بشيء من الاحترام بطريقة مختصرة وعملية أيضاً.

وجاء بعده فاسيلي كاشيرِن الذي كان يتألّف كلّه من مجرّد رعبٍ من الموت كلّيّ لا يطاق، ومن رغبة يائسة بالسيطرة على هذا الرعب وبعدم إظهاره أمام القضاة. ومنذ أن قادوه مع رفاقه إلى المحكمة في الصباح الباكر شرع يختنق من تسارع نبض القلب. وكان جبينه ينضح بقطرات من العرق، كذلك كانت تعرق وتبرد يداه، وكان قميصه البارد المبلل بالعرق يلتصق بجسمه، ويعرقل حركاته. وبجهد إرادة خارق كان يرغم أصابعه على ألا ترتجف، وصوتَه على أن يكون ثابتاً وواضحاً، وعينيه هادئتين. لم يكن يرى حوله أيَّ شيء، وكانت الأصوات التي تصله كأنها آتية من الضباب، وإلى هذا الضباب بالذات كان

يوجِّه جهوده اليائسة من أجل أن يجيب بصوتٍ ثابت، ومن أجل أن يجيب بصوتٍ عالٍ. ولكنه كان ما إن يجيب حتى ينسى في الحال السؤال وجوابه عليه، سواء بسواء، ويعود ثانية إلى صراعه الرهيب بصمت. وكان ينضح بالموت على قدْر من الوضوح جعل القضاة يتحاشون النظر إليه، وكان تقدير عمره صعباً صعوبة تقدير عمر جثة تتفسّخ. ولم يكن عمره في بطاقته الشخصية إلا ثلاثة وعشرين عاماً. وقد لمس فيرنر ركبته بيده مرة أو اثنتين لمسة خفيفة، وكان في كل مرة يجيب بكلمة واحدة:

- لا شيء.

على أن أفظع شيء بالنسبة له هو عندما راودته رغبة لا تحتمل الصبر بأن يصرخ، دون كلام، صرخة حيوانيةً يائسة. وقتها لمس فيرنر بهدوء، فردَّ عليه بصوتٍ خفيض، دون أن يرفع عينيه:

- لا بأس، يا فاسيا، قريباً ينتهي هذا.

وكانت الإرهابية الخامسة، تانيا كوفالتشوك، المثقلة بالحزن والاضطراب، تعانق الجميع بنظرة أمّ حنون. لم يكن لها أطفال يوماً، فقد كانت ما تزال في ميعة الصبا، حمراءَ الخدّين، مثل سيرغي غولوفين، ولكنها كانت تبدو أمّاً لكل هؤلاء لشدّة ما كان في نظراتها، وابتساماتها، ومخاوفها من حنان ومحبة لانهائية. لم تكن تولي المحكمة أيَّ اهتمام، وكأنها شيء لا يخصها البتة، فتكتفي بالإنصات إلى الطريقة التي يجيب بها الآخرون: ألا يرتعش صوتهم، أليس خائفاً، هل من حاجة لتقديم الماء.

كان حزنها يجعلها غير قادرة على النظر إلى فاسيا، فتكتفي بفرقعة خفيفة من أصابعها البضّة. وكانت تنظر إلى موسيا وفيرنر بفخر وإجلال، وتضفي على وجهها علائم وقارٍ وتركيز، فيما ظلّت تحاول إيصال بسمتها إلى سيرغي غولوفين.

«يا للغالي، إنه ينظر إلى السماء. انظر، انظر، يا يمامتي». - تقول في سرّها وهي تفكر بغولوفين. - وماذا عن فاسيا؟ ما هذا، يا إلهي، يا إلهي... ماذا أفعل به؟ إن قلتُ له شيئاً ازدادت حالته سوءاً، فقد ينخرط بالبكاء؟».

—ومثل بحيرة هادئة عند الفجر تعكس كلَّ غيمة عابرة، كانت تانيا كوفالتشوك تعكس على وجهها البضّ، الحبيب، الطيّب كل شعور سريع، كل فكرة من أفكار أولئك الأربعة. لم تكن تفكِّر إطلاقاً بأنها تحاكَم هي أيضاً، وبأنها سوف تُشنَق هي أيضاً، فقد كانت لامبالاتها عميقة. إنها هي مَن وجدوا عندها في شقتها مخزناً من القنابل والديناميت. والغريب هو أنها هي التي تصدّت للشرطة بإطلاق النار وأصابت أحد العملاء السريين بجرح في رأسه.

انتهت المحاكمة في حوالي الساعة الثامنة، عند هبوط الظلام. وشيئاً فشيئاً كانت السماء المتقدة بالزُّرقة تخمد أمام عيون موسيا وسيرغي غولوفين، و لم تغدُ زهرية اللون، لم تبتسم بهدوء كما في أماسي الصيف، وإنما تكدَّرت، وأصبحت رمادية، ثم فجأة صارت باردة وشتوية. وتنهَّد غولوفين وتمطّى، ونظر مرتين إلى النافذة، غير أنه لم يكن هناك إلا ظلمة الليل الباردة. وفيما هو مستمرٌّ في العبث بلحيته شرع بفضولٍ طفولي يتفحَّص القضاة والجنود المسلَّحين، وابتسم لتانيا كوفالتشوك. أمّا موسيا فإنها، عندما خمدت زرقة السماء، حوّلت عينيها، بهدوء ودون أن تخفض نظرها إلى الأرض، نحو الزاوية التي كان يهتزّ فيها على مهلٍ عشّ عنكبوت بفعل تيار خفيف من هواء التدفئة، وظلّت على هذه الحال حتى إعلان الحكم.

بعد إعلان الحكم ووداع محامي الدفاع الذين يرتدون الفراك[٢]، وتفادي عيونهم التي جعلها العجز تائهة، شاكية، مذنبة، التقى المتَّهمون لدقيقة في الباب وتبادلوا جُملاً قصيرة.

٢- وطويلة الذيل من الخلف مع بنطال لمّاع ذي مواصفات خاصة. نوع من اللباس الرسمي الأسود يتألف من سترة قصيرة من الأمام

ـ لا بأس، يا فاسيا، قريباً ينتهي كل شيء، ـ قال فيرنر.

ـ أجل، يا أخ، أنا لا بأس، ـ ردّ فاسيا بصوتٍ عالٍ، بهدوء بل وبما يشبه المرح. وحقّاً، تضرّج وجهه بالحمرة، و لم يعد يشبه وجه جثّة تتفسّخ.

ـ فليأخذهم الشيطان، ومع ذلك فقد حكموا علينا بالشنق، ـ سبَّهم غولوفين بسذاجة.

ـ هذا ما كان يجب علينا أن ننتظره، ـ أجاب فيرنر بهدوء.

ـ غداً يُعلَن الحكم في صيغته النهائية، ثم يضعوننا في السجن معاً، ـ قالت كوفالتشوك مواسية. ـ وسنظلّ معاً حتى لحظة الإعدام.

كانت موسيا صامتة. ثم اندفعت إلى الأمام بحزم.

٣. لا لزوم لشنقي

قبل أسبوعين من محاكمة الإرهابيين كانت المحكمة العسكرية نفسها في تلك المنطقة قد أصدرت، ولكنْ عن طريق قضاةٍ آخرين، حكماً بالإعدام شنقاً على فلاح اسمه إيفان يانسُن.

كان إيفان يانسُن هذا عاملاً زراعياً عند صاحب مزرعة ميسور، و لم يكن يختلف بشيء عن الشغّيلة الآخرين من أمثاله. كان إستونيّ الأصل، من فيزنبرغ. وظلّ على مدى عدّة سنوات يتنقّل تدريجياً من مزرعة إلى أخرى إلى أن اقترب من العاصمة تماماً. كان يتكلّم الروسية بطريقة رديئة جداً. ولمّا كان ربُّ عمله روسيّاً، كنيته لازاروف، و لم يكن في الجوار إستونيون، لزم هذا العامل الصمت سنتين بطولهما. وبصفة عامة فإن يانسُن لم يكن ميّالاً إلى الكلام، على ما يبدو. و لم يكن يصمت مع الناس فقط، بل ومع الحيوانات أيضاً. فقد كان يسقي الفرَس صامتاً، وصامتاً يُسرجها، وببطء وتكاسل يتحرك حولها بخطىً صغيرة، مرتبكة. وعندما تبدأ الفرس المستاءة من صمته تغضب وتتململ كان ينهال عليها بالضرب صامتاً بسوط غليظ . كان يضربها بقسوة، بعنادٍ بارد وشرّير. وإذا ما صادف وقوع ذلك في الوقت الذي يكون خلاله في حالة من السكر الشديد، فإنه كان يستشيط غضباً حتّى الجنون. عندها كان لسغ السوط ، وخبط الحوافر الخائف، السريع الوقع، المليء بالألم على الأرض الخشبية في الزريبة، يصل حتى البيت تماماً. ولّما كان يانسُن يضرب الفرَس فإن السيد كان يضربه أيضاً، غير أنه عجز عن إصلاحه فتخلّى عن ذلك.

كان يانسُن يسكر مرة أو مرتين في الشهر، وكان ذلك يحدث عادة في الأيام

التي ينقل فيها السيدَ إلى محطة السكك الحديدية الكبيرة التي يوجد فيها مطعم صغير وكحول. فبعد أن يوصل السيد يبتعد عن المحطة مسافة نصف فرسخ، وهناك يحيد عن الطريق قليلاً، ثم يربط الزحّافة والفرَس في الثلج، وينتظر رحيل القطار. وتكون الزحّافة مائلة إلى الجانب، تكاد تنقلب، فيما تمضي الفرَس تشقّ بقوائمها المتشنّجة الثلجَ الذي يصل إلى بطنها، ونادراً ما تنحني بخطمها إلى الأسفل كي تلحَس قليلاً من الثلج الغض المنفوش، فيما يكون يانسُن شبه مستلق في الزحّافة بطريقة غير مريحة وكأنه غفا قليلاً. كان طرفا قبّعته الفرو العتيقة المفكوكان يتهدّلان عاجزَين مثل أُذُنَي كلب سلوقي، وتحت أنفه الصغير المحمرّ تتجمّع ندفُ ثلج هشّة.

بعد ذلك يعود يانسُن إلى المحطة ويسرع في الشرب حتى السكر.

وطول الفراسخ العشرة في طريق العودة إلى المزرعة كان يطلق العنان للفرَس كي تمضي بأقصى سرعة. وكانت الفرَس المسكينة، المنهَكة من الضرب حتى الرعب تقفز بجُماع قوائمها الأربع كأنها تحترق، فيما الزحّافة تنزلق وتتمايل مصطدمة بأعمدة الطريق، ويانسُن مُرخ العنان يكاد كلَّ دقيقة يطير من الزحّافة وهو يغنّي تارة، وتارة يصرخ بجُمل إستونية متقطّعة عمياء. بل وفي أغلب الأحيان كان لا يغنّي، وإنما ينطلق إلى الأمام صامتاً، يكزّ على أسنانه من شدة ما يداهمه من غضب دفين، وعذابات، وذهول، فيكون كالأعمى: لا يرى من يصادفهم، ولا يصرخ، ولا يخفّف من سرعته الجنونية، سواءً أكان ذلك عند المنعطفات الحادّة، أو على المنحدرات. وما من أحد يعلم كيف لم يدهس أحداً، وكيف لم يتحطّم هو حتى الموت في إحدى تلك السفْرات الوحشية إلى هذا الحد.

كان ينبغي أن يُطرَد منذ مدّة طويلة، مثلما كان يُطرَد من الأماكن الأخرى، غير أن أجره كان رخيصاً، ولم يكن الشغّيلة الآخرون بأفضل منه، فظلّ يعمل هناك سنتين. لم يكن في حياة يانسُن أيّ نوع من الأحداث. وذات مرّة استلم رسالة

باللغة الإستونية، إلا أنها ظلّت دون قراءة لأن يانسُ نفسه كان أمّيّاً، و لم يكن الآخرون يعرفون اللغة الإستونية. وبنوع من اللامبالاة الهمجية ألقى بها في المزبلة، كمن لا يدرك أن الرسالة تحمل أخباراً من وطنه. كذلك حاول يانسُن استدراج عاملة المطبخ بسبب تشوقه لامرأة، على ما يبدو، ولكنه لم ينجح في مسعاه، ونال صدّاً فظاً وسخرية به، فقد كان قصير القامة، هزيل الجسم، متهدّل الوجه، أنمش، له عينان صغيرتان ناعستان بلون زجاجة وسخة. وقد تلقّى يانسن ذلك الفشل بلامبالاة، و لم يعد إلى التحرش بعاملة المطبخ مرة ثانية.

لئن كان يانسُن يتكلم قليلاً، فإنه كان ينصت ويستمع طول الوقت إلى الحقل الثلجي المضجر، بما فيه من أكوام الزبل المتجمّد الشبيه بصف من القبور التي غطّاها الثلج، وإلى الآفاق الرقيقة، وأزيز أعمدة التلغراف، وأحاديث الناس. لم يكن أحد غيره يعرف ما الذي يقوله له الحقل وأعمدة التلغراف، أمّا أحاديث الناس فكانت تبعث على القلق، مليئة بالإشاعات عن جرائم القتل، والنهب، وإشعال الحرائق. وذات مرّة ترامت في الليل دقّاتٌ متباعدة وواهنة من قرية مجاورة، دقات صادرةٌ عن ناقوس كنيسة بروتستانتية صغير كأنه جرس للعب، وطقطقةُ اشتعال حريق، بعد أن سطا غرباء على مزرعة غنيّة نهبوها وقتلوا مالكها وزوجته وأضرموا النار في البيت.

ولمّا كانوا يعيشون في مزرعتهم قلقين، فإنهم كانوا يطلقون كلابهم ليس في الليل فقط، بل وفي النهار أيضاً، وكان السيد يضع بندقية إلى جانبه ليلاً. وقد خطر له أن يسلّح يانسُن ببندقية من النوع نفسه، ولكنها بندقية ذات فوّهة واحدة وقديمة، لولا أن العامل قلّب البندقية بين يديه، ثم هزّ رأسه رافضاً ذلك لسبب مجهول. و لم يفهم صاحب البيت سبب الرفض، فسبّ يانسُن. أمّا السبب فكان يتمثّل في أن يانسُن كان أكثر ثقة بقوة سكينه الفنلندية ممّا بهذا الشيء العتيق الصدئ.

ـ إنها ستقتلني أنا، ـ قال يانسُن وهو ينظر بعينيه الزجاجيتين إلى صاحب البيت نظرة ناعسة.

فنفض هذا يده يائساً:

ـ يا لك من أحمق، يا إيفان. فلتعِشْ هنا مع هؤلاء العمال.

وإذا بهذا الـ إيفان يانسُن نفسه، الذي لم يثق بالبندقية، يقوم ذات مساء في الشتاء، عندما أرسلوا العامل الآخر إلى المحطة، بارتكاب جريمة مركّبة بهدف النهب المسلّح، والقتل، واغتصاب امرأة. وقد قام بذلك كلّه بطريقة في غاية البساطة، إذ أغلق قفل المطبخ بالمفتاح على عاملة المطبخ، ثم بكسلٍ وهيئة رجل تغالبه رغبة مميتة كي ينام، تقدّم نحو صاحب البيت من الخلف وأسرعَ ينهال عليه طعناً بالسكين في ظهره. ولمّا سقط السيد فاقداً وعيه، تراكضت الزوجة وهي تجأر بالعويل، فكشّر يانسُن عن أسنانه ملوِّحاً بالسكين، وشرع ينبش الصناديق والأدراج. وبعد أن أخذ المال بدا كمن رأى الزوجة لأول مرّة. وبطريقة فاجأته هو نفسه انقضّ عليها يريد اغتصابها. ولكنْ، لمّا لم تكن السكين في يده تلك اللحظة، تبيّن أن ربّة البيت أقوى منه. فهي لم تكتف بمنعه من اغتصابها وحسب، بل وكادت تخنقه أيضاً. وعندها تحرّك زوجها على الأرض، وقرقع المِحراك[٣] في يد عاملة المطبخ وهي تخلع به الباب، فلاذ يانسُن بالهرب راكضاً صوب الحقل. وقد أُلقيَ عليه القبض بعد ساعة بينما كان يجلس القرفصاء وراء زاوية الزريبة وهو يشعل أعواد ثقاب تنطفئ واحداً تلو الآخر محاولاً إشعال حريق.

بعد بضعة أيام مات صاحب البيت بسبب تسمم الدم. أمّا يانسُن فقد حكموا عليه بالإعدام شنقاً عندما جاء دوره بين الآخرين الذين ارتكبوا جرائم قتل

٣– الجدارية القديمة أو الوجاق. ـ م. عصا خشبية غليظة تنتهي برأسٍ حديدي مقوّس كالقرنين، تستعمَل لتحريك الحطب في المدفأة

ونهب. وكان في المحكمة، كما هو دائماً، صغيراً، هزيل الجسم، أنمش، ذا عينين زجاجيتين، ناعستين. وكان كمن لا يفقه نهائياً مغزى ما يدور، إذ كان مظهره لامبالياً تماماً: يطرف بأجفانه البيضاء، وبغباء وانعدام فضول يُجيل نظره في القاعة المهيبة التي لا يعرفها، وينكش أنفه بإصبعه الخشن، المتخشّب الذي لا ينحني. لم يكن أحدٌ يستطيع أن يتبيّن أنه قد تأنّق بعض الشيء إلا أولئك الذين كانوا يرونه أيام الأحد في الكنيسة. فقد وضع على رقبته لفحة حمراء وسخة حيكت باليد، وبلّل بالماء بعض أماكن من شعر رأسه، فكَمَدَ لون الشعر المبلول وكان سابلاً أملس، فيما كان شعره على الجهة الأخرى من رأسه يتهدّل خصلاتٍ شقراءَ نادرةً مثل سيقانِ سنابلَ هزيلة كسّرها البَرَد.

عندما أُعلِن الحكم عليه بالإعدام شنقاً دبَّ الاضطراب في يانسُن فجأة. فتضرج وجهه بحُمرة قوية، وطفِق يعقد اللفحة ثم يفكّها كما لو أنها كانت تخنقه. ثم لوّح بيديه بحركة عديمة المعنى، وقال يخاطب القاضي الذي لم يكن يقرأ الحكم، مشيراً بإصبعه إلى القاضي الذي كان يقرأه:

ـ قالت إنه يجب أن يشنقوني.

ـ من هي التي قالت؟ ـ بصوتٍ أجشَّ، خشنٍ سأل الرئيس الذي كان يقرأ الحكم.

فابتسم الجميع وهم يخفون البسمة تحت شواربهم وفي الأوراق، ولكنّ يانسُن أشار بسبّابته إلى الرئيس وبغضب أجاب مقطّباً:

ـ أنت!

ـ وماذا؟

ومرّة أخرى وجّه يانسُن عينيه إلى القاضي الصامت الذي كان يبتسم بأدب، وأحسّ فيه صديقاً وإنساناً ليس له أيّ علاقة البتة بقرار الحكم، وكرّر:

ـ هي قالت إنه يجب أن يشنقوني.

ـ أخرِجوا المتّهم.

غير أنه تسنّى ليانسُن أن يكرر مرة أخرى بإلحاح ويقين:

ـ لا لزوم لشنقي.

كان بوجهه الصغير الغاضب الذي عبثاً حاول أن يُضفي عليه أهمية، وبإصبعه الممدودة، شديد التفاهة إلى درجةٍ جعلت جندي الحراسة يخالف التعليمات ويقول له بصوتٍ خفيض وهو يُخرِجه من القاعة:

ـ يا لك من أحمق، أيّها الفتى.

ـ لا لزوم لشنقي. ـ كرر يانسُن بعناد.

ـ سوف يشنقونك قبل أن يرفّ لك جفن.

ـ يكفي، اسكتْ! ـ صرخ الجندي الآخر بغضب. غير أنه لم يحتمل أيضاً وأضاف: ـ ثم إنك لصٌّ أيضاً! لماذا، أيّها الأحمق، أهلكتَ نفساً بشرية؟ فلْيشنقوك إذاً.

ـ ربّما يعفون عنه؟ ـ قال الجندي الأوّل وقد أخذته الشفقة بيانسُن.

ـ طبعاً! سيعفون عن أمثاله... هه، يكفي، لقد تكلّمنا وانتهى.

إلا أن يانسُن كان قد صمت. ومن جديد أعادوه إلى الزنزانة نفسها التي سبق له أن أمضى فيها شهراً وتسنّى له أن يعتادها مثلما كان يعتاد كلّ شيء: الضرب، والفودكا، والحقل الثلجيّ الممل، المفروش بتلال ثلجية مستديرة، صغيرة كأنها مقبرة. حتّى إنه بات يُحسّ الآن بالسرور بعد أن رأى سريره ونافذته المشبّكة بالقضبان، وقدّموا له الطعام، فهو منذ الصباح لم يكن قد أكل أيّ شيء. ما من

شيء كان يضايقه إلا ما حدث في المحكمة، غير أنه لم يكن يُحسِن ولا يستطيع التفكير بذلك. و لم يكن يتصوّر إطلاقاً ما معنى الموت شنقاً.

ومع أن يانسُن كان محكوماً بالإعدام، فقد كان هناك كثيرون من أمثاله، و لم يَعدُّوه في السجن مجرماً متميّزاً. لذلك كانوا يتكلمون معه من غير تهيُّب أو احترام، مثلما يتكلّمون مع أيّ سجين آخر ليس محكوماً بالإعدام. وكأنهم ما كانوا يَعدّون موته موتاً. ولمّا علم ناظر السجن بالحكم عليه قال له بلهجة واعظة:

ـ وماذا، يا أخ؟ قريباً يشنقونك!

ـ ومتى سيشنقونني؟ ـ سأل يانسُن مرتاباً.

فكّر الناظر ثم قال:

ـ يجب عليك أن تنتظر قليلاً، يا أخ. إلى أن تكتمل عندنا مجموعة. لأن شنق واحد فقط ، بل ومثلك، فمسألة لا تستحق حتى المحاولة. هذا يحتاج إلى تنظيم.

ـ طيِّب، متى؟ ـ سأل يانسُن بإلحاح.

لم يسوءه مثقالَ ذرّة أنه لا يستحق حتى أن يُعدَم بمفرده، وهو لم يصدّق ذلك، وعدَّه حُجّة لتأجيل إعدامه، ومن ثَمَّ لإلغائه تماماً. فأحسَّ بالفرح لأنَ اللحظة الغامضة والرهيبة التي لا يمكن التفكير بها أُقصَيت إلى مكان بعيد، وصارت خرافية وغير معقولة مثل كلِّ موت.

ـ متى، متى! ـ غضب الناظر، ذلك العجوز الغبيّ والمتجهِّم. ـ لا تظنّ المسألة شَنْقَ كلب يأخذونه إلى وراء الزريبة وبلحظة ينتهي كل شيء. أمّا أنت فهذا ما تريده، يا أحمق!

ـ أنا لا أريد! ـ فجأة قطّب يانسُـن بسرور. ـ هي التي قالت أن يشنقوني، وأنا لا أريد!

وضـحك، ربّما أوّل مرة في حياته، ضـحكةَ وَقْوَقة، سـخيفة ولكنها شـديدة السرور والفرح. كان مثل إوزّة صاحت:غا ـ غا ـ غا! فنظر إليه الناظر متعجّباً، ثم عبس بصرامة، إذ إن هذا السرور السـخيف الذي يُبديه رجل ينتظر الإعدام كان إهانة للسجن وللإعدام نفسـه، كما إنه جعَلهما شيئاً غريباً جدّاً. وفجأة، للحظـة واحدة، لأقصر لحظة، بدا للناظر العجوز الذي أمضـى حياته كلها في السـجن الذي يؤمن بقواعده وكأنها قوانين الطبيعة، بدا له أن السجن وحياته كلها شيء شبيه بمستشفى مجانين، بل وأن الناظر نفسه أكبر المجانين.

ـ تفو،عليك اللعنة! ـ وبصـق. ـ ما لك تكشِّر عن أسـنانك، لا تظننّ أنها قصّـة كلب!

ـ أنا لا أريد، ها ها ها! ـ ضحك يانسُن.

ـ يا للشيطان! ـ قال الناظر وهو يشعر بحاجة لأن يرسم إشارة الصليب.

لم يكن ثمة إلا أقلّ شـبه بين الشـيطان وهـذا الرجل ذي العينين الصـغيرتين، والوجه المترهّل، ولكنْ كان في صـوته الشبيه بصوت الإوزّ شيء يحطِّم قدسية السجن ورسوخه. يكفي أن يزيد من ضحكه قليلاً حتّى تنهار جدرانه النخرة، وتسـقط شـباكه الحديدية البليلة، ويقود الناظر نفسُه السـجناء إلى وراء البوّابة ويقول لهم: تفضّلوا، أيُّها السادة، وتنزّهوا في المدينة على هواكم، ولعلّ بينكم من يريد الذهاب إلى القرية؟ أيّها الشيطان!

ولكنّ يانسُن كان قد توقّف عن الضحك مكوِّراً عينيه بمَكرٍ لا غير.

ـ كما قلت لك! ـ قال الناظر بتهديدٍ غيرِ محدَّدٍ وانصرف وهو يتلفّت.

ظلَّ يانسُــن هادئاً، بل ومرِحاً، ذلك المساء كلَّه. كان يردّد في نفسه الجملة التي قالها: لا لزوم لشـنقي، وكانت على قدْرٍ من الإقنـاع، والحكمة وقوّة الحجّة جعل المسـألة لا تستحقّ القلق. حتى إنه كان قد نسيَ جريمته من زمان، غير أنه كان يتأسّـف أحياناً لأنه لم يتمكّن من اغتصاب السيّدة. ولكنه سرعان ما نسيَ هذا أيضاً.

كلَّ صباح كان يانسُن يسأل متى سيشنقونه، وكلَّ صباح كان الناظر يردّ عليه:

ـ سيأتي دورك، يا شيطان. اجلس! ـ ويسرع بالخروج قبل أن يتسنّى ليانسُن أن يُغرِق في الضحك.

وبسـبب هذه الكلمـات التي تتكرّر برتابـة كلَّ يوم، ولأن كل يـوم يبدأ ويمر وينقضـي كأكثر الأيّام اعتيادية، ترسّخ يقين لدى يانسُن بأنه لن يكون هناك أيّ إعدام. وبسرعة كبيرة صـار ينسى المحكمة ويسـتلقي أياماً بطولها على سريره حالمـاً على نحوٍ غامض ومفرح بالحقول الثلجية المضـجرة بتلالهـا الثلجية، وببوفيه المحطة، وبأشـياء أخـرى أكثر بعداً وبهجة. كانـوا يطعمونه جيداً في السجن، وبسرعة كبيرة، خلال بضعة أيّام، زاد وزنه فصار يتباهى قليلاً.

«الآن كانت سـتحبّني، ـ خطرت على باله ربّة البيت. ـ فأنا الآن سمين، لست أسوأ من زوجها».

لم يراوده شـيء إلا إحساسـه برغبة قويّـة في أن يشرب فـودكا، في أن يشرب وينطلق سريعاً ـ سريعاً على ظهر الفرس.

حين اعتقلوا الإرهابيين وصـل الخبر إلى السـجن. وردّاً على السؤال المطروق الذي يكرِّره يانسُن أجاب الناظر فجأة على نحوٍ غيرِ متوقّع وبفظاظة:

ـ الآن صار شنقك قريباً. أظنّ أنه سيكون بعد أسبوع.

اصفرّ يانسُن وكأنه يستسلم لنوم عميق. وكانت نظرة عينيه الزجاجيتين عَكِرة، تماماً كأنه يغفو، وسأل:

ـ هل تمزح؟

ـ كنتَ لا تطيق صبراً، وإذا بك الآن تمزح. عندنا لا يجوز المزاح. أنت تحب المزاح، وعندنا لا يجوز المزاح، ـ قال الناظر بمهابة وانصرف.

ومع حلول مساء ذلك اليوم كان الهزال قد ظهر على يانسُن. وجِلدُه الذي اشتدّ، وصار لبعض الوقت أملس، عاد فجأة ليتقلّص إلى عدد كبير من التجاعيد الصغيرة، حتّى إنه بدا متهدِّلاً في بعض الأماكن. وصارت عيناه ناعستين تماماً، وباتت كل خطواته شديدة البطء والذبول، وكأن كل التفاتة برأسه، وحركة في أصابعه، وخطوة برجله كانت عملاً بالغ الصعوبة والثقل يتطلّب إعمال الفكر مدة طويلة جداً قبل الشروع به. وفي الليل استلقى على فراشه؛ ولكنه لم يُغمِض عينيه، الناعستين أصلاً، فظلّتا حتى الصباح مفتوحتين.

ـ آها، ـ قال الناظر بسرور حين رآه في اليوم التالي. ـ هذا المكان، يا صاحبي، ليس خمّارة.

بشعور من الرضا الطيِّب، كشعور عالم نجحت تجربته مرّة أخرى، تفحّص المحكومَ من أخمص قدميه حتى قحفة رأسه باهتمام وتفصيل. الآن سيسير كل شيء كما ينبغي. لقد خُذِل الشيطان، وعادت القدسيّة للسجن والإعدام، ـ وبتسامحٍ، بل وبشفقة صادقة، استفسر العجوز:

ـ هل ترغب بمقابلة أحد أم لا؟

ـ لماذا المقابلة؟

ـ للوداع. أن تقابل أُمّك، مثلاً، أو أخاك.

ـ لا أريد أن أُشنَق، ـ قال يانسُن بصوتٍ خفيض ومال بطرف عينه إلى الناظر. لا أريد.

نظر إليه الناظر، ونفض يده بصمت.

بحلول المساء كان يانسُن قد اطمأنّ قليلاً. كان النهار عاديّاً جداً، وعادياً جداً كان ضياء السماء الشتوية الغائمة، وعادياً جدا كان وقْع الخطوات في الممر، والكلام العملي الذي ينطق به أحدهم، وعادية وطبيعية ومألوفة كانت رائحة الحَساء الحامض، حتى إنه توقّف من جديد عن التصديق بالإعدام. ولكن الوضع بات رهيباً مع قدوم الليل. قبل ذلك كان يانسُن يُحسّ الليل مثل ظلام لا غير، مثل زمن مظلم من نوع خاص، عندما يكون النوم ضرورياً، ولكنه أحسَّ الآن بجوهره الغامض والرهيب. فلكي لا يؤمن المرء بالموت، يجب عليه أن يرى ويسمع ما حوله من أشياء عاديّة: الخطوات، الأصوات، النور، حَساء الملفوف الحامض، أمّا الآن فكان كل شيء غير عادي، وهذا السكون وهذا الظلام كانا بحد ذاتهما قد باتا وكأنهما الموت.

كلّما امتدّ الليل ازداد الشعور بالرعب. وبسذاجة الهمجي أو الطفل اللذَين يَعدّان كلَّ شيء ممكناً، كان يانسُن يرغب في أن يصرخ بالشمس: أشرقي! فدعا الشمس وتوسّل إليها كي تشرق، إلا أن الليل كان ينشر ساعاته السوداء على الأرض، و لم يكن هناك من قوّة تستطيع وقف جريانه. وهذه الاستحالة التي مثُلت أمام يانسُن لأوّل مرّة بهذا الوضوح ملأته بالرعب. إذ إنه قبل أن يتجرّأ على الإحساس بذلك على نحوٍ واضح كان قد أدرك حتمية الموت القريب، فخطا بقدم داهمها الموت إلى أولى درجات المقصلة.

مرة أخرى أشعرَه النهار بالطمأنينة، ومرة أخرى أخافه الليل، واستمرّ ذلك حتى تلك الليلة التي وعى فيها وأحسّ بأن الموت حتميّ وسيأتي إليه بعد ثلاثة أيام، عند الفجر، وقت شروق الشمس.

إنــه لم يفكر في يوم من الأيام ما هو الموت، و لم يكن للموت صــورة في ذهنه، ولكنــه أحسّ الآن بوضــوح، ورأى ولمســ أن الموت دخــل إلى الزنزانة، وأنه يبحث عنه بحركات من يديه. وطلباً للنجاة راح يانسُن يركض في زنزانته.

غــير أن الزنزانة كانت صــغيرة، حتى خُيّل له أن الزوايا فيها ليســت حادّة، بل هي مدوّرة، وكلّها تدفعه إلى وسط المكان. وما من شيء ليختبئ خلفه. والباب مقفل. والدنيا نهار. وصــامتاً اصــطدم جســمه عدة مرّات بالجــدران، ومرة اصــطدم بالباب صــدمة صــمّاء مندفعاً في الفراغ. وتعثّر فسقط على وجهه، وحينها شــعر بأنه في قبضــة المــوت. وبينما كان مســتلقياً على بطنه ملتصــقاً بالأرض، يُخفي وجهه في أســفلتها الأســود القذر، جأر يانسُــن من الرعب. وظلّ مســتلقياً يجأر إلى أن جاؤوا إليه. ولمّا رفعوه عن الأرض وأجلســوه على السرير، وصــبّوا ماء بارداً على رأســه كان يانسُن ما يزال لا يجرؤ بعد على فتح عينيه المغمضــتين بقوّة. كان يفتح إحداهما قليلاً فيرى الزاوية المضاءة الفارغة، أو فردة حذاء في الفراغ، فيعود لينخرط بالصراخ من جديد.

إلا أن الماء البارد بدأ يفعل فعله. وساعد في هذا أيضاً قيامُ الناظر المناوب، ذلك العجوز نفســه، بضرب يانسُــن عدة مرّات على رأســه بقصد علاجه. على أن إحساسه هذا بالحياة طرد الموت حقاً، ففتح يانسُن عينيه، وبدماغ عَكِرٍ أمضى الجزءَ الباقي من الليل في نوم عميق. كان مستلقياً على ظهره، فاغراً فاهُ، يشخر شــخيراً مديداً وعالياً. وبــين جفنيه المطبقين قليلاً كانت تظهر عينه المســطّحة والميتة بيضاءَ وليس فيها حدَقة.

—وكلُّ شيء في العالم: من نهار، وليل، وخطوات، وأصوات، وحَساء كرنب حامض صــار في نظره رعباً خالصــاً، وألقى به إلى حالة همجية من الذهول لا يضاهيها شيء. و لم يكن في مقدور فكره الضعيف أن يربط بين هذين التصوّرين المتناقضــين فيما بينهما إلى هذا الحد من الغرابة: ضــوء النهار العادي، ورائحة الكرنب وطعمه، من جهة، وكونُه ســوف يموت بعــد يومين، أو بعد يوم، من

جهة ثانية. إنه لم يفكر بشـيء، بل و لم يَعد الساعات، وإنما وقف ببساطة في رعبه الأخرس أمام هذا التناقض الذي شـقّ دماغه نصفين. وصار شاحباً تماماً: لا أكثر بياضـاً، ولا أكثر حمرة، وأوحى مظهره بأنه هادئ مطمئن. غير أنه لم يأكل شيئاً، وأقلع عن النوم كلياً: فكان إمّا يضـمّ رجليه تحته طول الليل خائفاً وهو جالس على كرسي دون مسند، وإمّا يتمشّى في الزنزانة بهدوء، خلسة وهو ينظر حوله ناعساً. وطول الوقت كان فمه نصـف مطبَق كما لو بسـبب تعجُّب عظيم لا يتوقّف. وقبل أن يتناول بيديه أبسـط الأشياء كان يتفحصه طويلاً، وببلادة يأخذه مرتاباً.

ولّما صار إلى هذه الحال لم يعد أحد يوليه اهتماماً: لا الناظر، ولا الجندي الذي يرصـد حركاته عبر كوّة الباب. كانت تلك حالةً عاديّة بالنسـبة للمحكومين، شبيهة ـ في رأي الناظر الذي لم يجرّبها يوماً ـ بالحالة التي تمر بها البهيمة عندما يجعلونها تفقِد صوابها بضربة عصا غليظة على جبينها.

ـ لقد فقد صـوابه الآن، ولن يعود يشـعر بأي شـيء قبل أن يجيء الموت، ـ قال الناظر وهو يتفحّصه بعينيه الخبيرتين. ـ هل تسمع، يا إيفان؟

ـ لا لزوم لشنقي، ـ ردَّ يانسُن بفتور، وتدلّى فكّه السفليّ من جديد.

ـ لو لم تقتل لّما شـنقوك. ـ بنبرة وعظ قال كبير النظّار الذي ما يزال شاباً، ولكنه مهيب جداً يتقلّد أوسمة. ـ ولكنكَ قتلت، والآن لا تريد أن يشنقوك.

ـ لقد قررت أن تقتل إنساناً دون عقاب. غبيٌّ، غبيٌّ وماكر.

ـ لا أريد، ـ قال يانسُن.

ـ طيّب ،يا حبّوب، أن لا تريد، هذا شأنك، ـ قال كبير النظّار. ـ ولكنْ، بدلاً من التلفّظ بحماقات، خيرٌ لك أن توصي لأحدٍ بما تملك مهما كان قليلاً.

ـ ليس عنده أيّ شيء. ثوب وسروال لا غير. وكذلك هذه القبّعة الفرو من نوع «غندور».

علـى هذا النحو مـرّ الوقت حتى يوم الخميس. وفي يوم الخميس، في السـاعة الثانية عشرة ليلاً، دخل إلى زنزانة يانسُن أناس كثيرون، وقال سيّدٌ ذو رُتب:

ـ استعدّوا. فقد حان وقت السفر.

ارتدى يانسُـن كلّ مـا كان عنده من ثياب، وعقد لفحتـه الحمراء القذرة وهو يتحرك بقدْر واحد من البطء والخمول.

وبينما كان السيد ذو الرتب يدخّن لُفافته وينظر كيف يرتدي يانسُن ثيابه، قال لأحدهم:

ـ ما أدفأ هذا النهار اليوم. ربيعٌ تماماً.

فجأة توقّف يانسُن:

ـ لا أريد، ـ قال بفتور.

أخـذوه من تحـت إبطيه وقادوه، فسـار معهم طائعاً، رافعـاً كتفيه. وفي الحال هبّت في الباحة نسـمة ربيعية رطبة، وأحسّ بالبلل تحت أنفه. ورغم أن الوقت ليـل فقد ازداد الجو دفئاً، وكانت تتسـاقط على الأحجار من مكان ما قطرات كثيفـة مرحة. وبينما كانـوا في انتظار دخول رجل الدرك إلى العربة السـوداء التي ليس فيها مصابيح، وصليل سيوفهم يتعالى وهم ينحنون، كان يانسُن يمرّر إصبعه بكسلٍ تحت أنفه البليل ويعدِّل لفحته التي لم يعقدها جيداً.

٤ . نحن، أبناء أورلوف[٤]

بحضور هيئة محكمة الإقليم العسكرية ذاتها التي حاكمت يانسُن، صدر الحكم بالإعدام شنقاً على فلاح من مقاطعة أورلوف، قضاء يليتس، هو ميخائيل غولوبيتس المشهور باسم ميشكا[٥] الغجري، وأيضاً باسم التتري. تتمثّل جريمته الأخيرة، الثابتة بأدلة دامغة، بقتل ثلاثة أشخاص، وعملية نهب بالسلاح. وكان ماضيه الأسود يذهب أبعد من ذلك باتجاه أعماق مجهولة. إذ كانت هناك تلميحات غامضة إلى مشاركته في عدد كبير من أعمال النهب والقتل الأخرى تُشعِر بما وراءه من دم وعربدة سكْر غامضة. وكان بصراحة كاملة وصدق تام يسمّي نفسه قاطع طريق، وينظر بسخرية إلى أولئك المجرمين الذين كانوا يعظِّمون أنفسهم بقولهم إنهم يسترجعون المسروق. وقد تحدّث برضا وتفصيل عن جريمته الأخيرة التي لم يؤدِّ الحبس بسببها إلى أيِّ نتيجة. وردّاً على الأسئلة عن ماضيه كان يكتفي بالتكشير عن أسنانه والصفير:

ـ ابحث عن الريح في البراري!

وحين كانوا يشدِّدون الإلحاح عليه بالأسئلة كان الغجري يتّخذ مظهراً جدّياً ومهيباً.

ـ نحن جميعنا، أبناء أوريول، كسّارو رؤوس. أوريول وكرومي[٦] أوّل اللصوص. كاراتشوف وليفني قدوة اللصوص أجمعين. أمّا يليتس فإنها أمّ

٤- اسم مدينة هي مركز مقاطعة في روسيا. ـ م.

٥- ميشكا صيغة التحبب والتصغير من اسم ميخائيل.

٦-أوريول. ـ م. كرومي، كاراتشوف، ليفني ويليتس قرى وبلدات في مقاطعة

اللصوص كلِّهم. لا شيء هنا يحتاج إلى الشرح!

كانوا يسمّونه الغجري لشبهه بالغجر ولخفة يده في السرقة مثلهم. كان سواد شعره شديداً إلى حدّ غريب، وكان نحيلاً، وعلى صدغيه التريين الناتئين آثار حروق شمسية صفراء. وعلى شاكلة الخيل كان يقلب عينيه فلا يعود يظهر منهما إلا البياض، ولا تراه إلا متعجّلاً أبداً. كانت نظرته قصيرة، غير أنها خارقة في استقامتها وامتلائها بالفضول، والشيء الذي ينظر إليه نظرة قصيرة كان كأنما يفقد شيئاً ما، يتخلّى عن جزء من نفسه، ويغدو شيئاً آخر. ولُفافة التبغ التي ينظر إليها كان أخذُها مكروهاً وصعباً أيضاً، وكأنها كانت في فم شخص آخر. كان مسكوناً بشيء أبديّ لا يمكن كبحه، تارة يقرنه ويعصره مثل حبل مجدول، وتارة يُطلقه بقوّة طيفاً واسعاً من شرارات تتطاير وتدوّي. وكان يشرب من الماء سطولاً تقريباً، مثل حصان.

كان يقفز بسرعة وهو يجيب على الأسئلة كلِّها في المحكمة باختصارٍ، وثبات، بل وكأنما بسرور:

ـ صحيح!

وأحياناً كان يؤكِّد:

ـ صـ ـحـ ـيـ ـيـح!

وعلى نحو غير متوقَّع إطلاقاً قفز عندما تطرّق الحديث إلى شخص آخر، وطلب من الرئيس:

ـ اسمحْ لي بأن أصفِر!

ـ ولماذا؟ ـ تعجَّب الرئيس.

ـ ما داموا يؤشِّرون أنني أعطيت إشارة لرفاقي، فانظروا. إنه شيء طريف جداً.

بقليل من الحيرة وافق الرئيس. وسرعان ما وضع الغجريّ أصابعه الأربع في فمه، إصبعين من كل يد، وقلب عينيه بوحشية، فشقّ هواءَ قاعة المحكمة الميت صفيرٌ قاطع طريق همجي يجعل الخيل تشرئبّ واقفة على قوائمها الخلفية ، ووجهَ الإنسان يشحب رغماً عنه. هذا الصفير الثاقب الذي لم يكن بشرياً، ولا وحشيّاً، كان يتضمّن كل شيء: كآبة القتيل المميتة، وفرحة القاتل الهمجية، والتحذير الرهيب، والاستغاثة، وعتمة الليل الخريفي المكفهر، والوحدة.

صرخ الرئيس بكلام ما، ثم لوّح بيده للغجري فانصاع وصمت. ومثل فنّان حقق نصراً في أداء نغَم غنائي صعب، ولكنه يؤديه بنجاح دوماً، جلس ومسح أصابعه البليلة بثوبه، وأجال بصره بالحاضرين.

ـ يا له من قاطع طريق! ـ قال أحد القضاة وهو يحكّ أذنه.

إلا أن قاضياً آخر، له لحية روسية عريضة وعينان تتريتان كعينَي الغجري، اعترض مبتسماً:

ـ هذا طريف حقّاً.

وبقلبٍ مطمئن، من غير ما شفقة، ومن غير ما تأنيب ضمير أصدر القضاة على الغجريِّ حكماً بالإعدام.

ـ صحيح! ـ قال الغجريُّ بعد قراءة الحكم. ـ في الحقل الرحيب، لكنّ ثمّة حاجزاً. صحيح!

وخاطب الحارس باستهتارٍ قائلاً:

ـ فلنذهبْ، أيُّها العفِن. ولتقبض على سلاحك جيداً، وإلا نزعتُه منك!

نظر الحارس إليه بصرامة وتخوّف، ثم تبادل النظر مع رفيقه وتلمّس زناد بندقيته. وفعل الحارس الآخر الشيء نفسه. وطول الطريق إلى السجن كان

الجنديّان كأنما لا يمشـيان، بل يطيران في الهواء، فقد أذهلهما المجرم و لم يشعرا بالأرض تحت أقدامهما، ولا بالزمن، ولا بنفسهما بالذات.

قبل الإعدام كان على ميشـكا الغجري، مثلُه مثل يانسُن، أن يُمضيَ في السجن سـبعة عشر يوماً. وقد طارت تلك الأيام السبعة عشر كلّها مثل يوم واحد، مثل فكرة لا تنطفئ عن الهرب، والحرية، والحياة. وذلك الشيء الذي لا يمكن كبحُه، المسيطرُ على الغجري، والمحصور الآن بين الجدران، والقضبان، والنافذة الميتة التي لا يُرى منها شـيء، وجّه غضبه كلّه إلى داخل نفسه وحرق فكرة الغجري مثـل فحم منثور على خشـب. وكما في حالة من السـكر كانـت تحوم حوله وتتصـادمُ وتتوه صـورٌ سـاطعة ولكنها غيرُ مكتملة، كانت تروح وتجيء قريباً منه في زوبعة منفلتة تعمي الأبصـار، وكانت كلّها مندفعة باتجاه هدف واحد، باتجاه الهرب، والحرية، والحياة. تارة كان الغجري ينفخ منخريه مثل حصـان، ويُمضـي ساعات كاملة يتشـمّم الهواء، فقد خيّل له أنه يشمّ رائحة خشخاش، ودُخانَ حريق، ورائحةَ شيء عديم اللون، لاذع يحترق، وتارة يدور في الزنزانة مثل مِغزلٍ، وهو يتلمّس الجدران بسرعة، ويدقّها بإصبعه يختبر متانتها، ويسنّ السقف بنظرته، وينشر قضبان الشبابيك. وبحركاته التي لا تهدأ أنهك الجندي الـذي يراقبه عبر ثقب الباب. وقـد هدّده الجندي عدة مرات، وهو يائس، بأن يُطلق عليه النار. وكان الغجري يصدّه بفظاظة وسخرية. و لم يكن الأمر ينتهي بسـلام إلا لأن الملاسنة سرعان ما كانت تنقلب إلى سُبابٍ فلاحيّ بسيط، خالٍ من الإهانة، يبدو إطلاق النار فيه سخيفاً ومستحيلاً.

كان الغجـري ينام لياليه بعمق، دونما حركة تقريبـاً، في ثبات لا يتبدّل، ولكنّه حـيٌّ، مثلَ نابض متوقّفٍ عن العمل موقتاً. ولكنه ما إن يقفز ناهضـاً حتى يبدأ في الحال بالحركة والتفكير والتلمّس. كانت يداه جافّتين وساخنتين دائماً، غير أن قلبـه كان في بعض الأحيان يبرد فجأة وكأن أحداً وضـع في صـدره قطعة جليد لا تذوب، فينتشر في كل أنحاء جسمه خدَرٌ جافّ دقيق. كان الغجري،

الكامـد اللون أصـلاً، يسـوَدُّ في هذه اللحظـات ويتّخِذ وجهه لـون الأواني الحديدية الضـارب إلى الزرقـة. وقد ظهرت عنده عادة غريبـة، إذ كان - كمنْ أكل شـيئاً فيه حلاوة فائقة لا تطاق - يلحس شـفتيه دائماً، ويتمطّق، وبفحيح كان يقذف لُعابه عبر أسنانه على الأرض. وكان لا يكمل نطق الكلمات لشدّة ما كانت تركض أفكاره مسرعة لا يتسنّى للسانه أن يلحق بها.

وذات مـرة دخـل عليه في النهـار رئيس الناظريـن مصـحوباً بحارس. فمال الرئيس بنظره إلى الأرض المغطاة بالبصاق وقال عابساً:

- كم وسّخت!

فاعترض الغجريّ بسرعة:

- أمّا أنت، أيُّها الخطم المشْـحِم، فقد وسّخت الأرض كلّها، و لم أقل لك شيئاً. لماذا تتحرّش بي؟

ظلّ الناظر محتفظاً بعبوسـه نفسـه وعرض عليـه أن يعمل سـيّافاً عنده. فكشّر الغجري عن أسنانه وقهقه.

- هـه، ألا يوجد عندك أحد؟ شـاطر! إليك فاشـنقْ، إذاً، هيّا، هـا - ها! فالرقبة موجودة، والحبل موجود، ولكن ما من أحد ليَشنِق. أي والله، شاطر!

- مقابل ذلك ستظلّ حيّاً.

- وكيف لا، إنني لن أشنق أحداً وأنا ميت. يا له من كلام، أيُّها الأحمق!

- ماذا تقول؟ فأنت لا فرق عندك: إمّا هذه أو تلك.

- وكيف يَشنِقون عندكم؟ لعلّهم يُخنَقون في الخفاء!

- كلا، مع موسيقى، - ردّ الناظر زاجراً.

ـ حقّاً، أحمق. بالطبع، لا بد من الموسيقى. انظر كيف! ـ وطفق يغنّي شيئاً فيه طرافة.

ـ إنك جُننت، يا عزيزي، ـ قال الناظر. ـ فما رأيك، قل لي بوضوح.

كشّر الغجري قائلاً:

ـ كم أنت عَجول! تعال مرة أخرى، عندها أقول لك.

واقتحمت فوضى الصور الساطعة، ولكنْ غير المكتملة، التي تثقل على الغجري باندفاعها، صورٌ جديدة هي: ما أحسنَ أن أكون سيّافاً في ثوب أحمر. وبحيوية تصوّر ساحة تغصّ بالناس، ومنصّة عالية يتمشّى هو، الغجري، عليها في ثوبه الأحمر متباهياً، والفأس في يده. الشمس تضيء الرؤوس، شعاعها يلمع بمرح على الفأس، ويبلغ المرح والثراء بكلِّ شيء ما يجعل حتى ذلك الذي سيقطعون الآن رأسه يبتسم أيضاً. وتظهر وراء الناس عربات وأخطام خيول، لأن هناك كثيراً من الفلاحين الذين جاؤوا من القرى. وبعد ذلك يظهر الحقل الرحيب.

ـ تصـ ا ـ اخ! ـ تمطّق الغجري وهو يلحس شفتيه ويبصق ما سال من لعابه.

وفجأة وكأنما ألبسوه على عَجَلٍ طاقيّة فروٍ هبطت حتى فمه تماماً فأحسّ بظلمة واختناق، وبأن قلبه صار قطعة من جليد لا يذوب، ويبعث فيه دبيب خَدَرٍ جافّ.

ثم عرّج الناظر مرّتين، فكان الغجري يقول يكشِّر عن أسنانه ويقول:

ـ كم أنت عَجول. تعال مرّة أخرى.

وبطرفة عين صاح الناظر أخيراً عبر كوّة الباب:

ـ إنك أضعتَ فرصة العمر، أيها الغراب! لقد وجدنا شخصاً غيرك!

ـ فليأخذك الشيطان، قم بالشنق أنت! ـ قال الغجري بغضب. ثم توقّف عن الحلم بمهنة السَّيّاف.

ولكنْ، في نهاية المطاف، كلّما اقترب موعد الإعدام كان اندفاع الصور الممزّقة يصبح أمراً لا يطاق. لقد بات الغجري يريد أن يتوقّف، أن يمدّ رجليه ويتوقّف، ولكن دوّامة التيار كانت تحمله بعيداً و لم يكن ثمة شيء ليتشبّث به، لأن كل شيء حوله كان يسبح طافياً على الماء. وبات نومه مضطرباً، تطالعه فيه أحلام جديدة، ناتئة، ثقيلة مثل قِطَع خشب ملوّنة، وأكثر اندفاعاً من الأفكار. ذلك لم يكن الآن تيّاراً، بل كان سقوطاً لانهائياً من جبل لانهاية له، كان تحليقاً دوّاراً عبر عالم يبدو زاهي الألوان. حين كان الغجري طليقاً كان له شاربان فيهما كثير من الغندرة، أمّا في السجن فقد بات له لحية قصيرة، سوداء، شائكة، وهذا ما جعل مظهره مرعباً ومجنوناً. وكان الغجري في بعض الأحيان ينسى نفسه حقّاً، ويدور في الزنزانة من غير ما هدف إطلاقاً، ولكنه كان ما يزال بعدُ يتلمّس القشرة المتصدّعة على الجدران. وكان يشرب الماء مثل حصان.

وذات مرة قرب المساء، عندما أشعلوا الضوء، جثا الغجري وسط الزنزانة على أربع وعوى بصوتٍ ذئبي يرتجف. وكان عندها جدّيّاً على نحوٍ خاص فعوى عواءَ مَن يقوم بفعلٍ هام وضروري. كان يملأ صدره بالهواء ثم يطلقه على مهلٍ عواءً مديداً يرتجف، وينصت إليه باهتمام، وهو يكوّر عينيه، ليحكم عليه. وهذا الارتجاف في صوته كان بحد ذاته يبدو له مفتعلاً بعض الشيء. و لم يكن يصرخ بطريقة عشوائية، بل كان يدقّق بكلِ نغمة في هذا العواء الوحشي المفعم بما لا يوصَف من رعبٍ وأسى.

ثم قطع العواء في الحال، وظلّ صامتاً بضعَ دقائقَ لا ينهض من وقفته على أربع. وفجأة تمتم بصوتٍ خفيضٍ، ووجهُه إلى الأرض:

ـ أيُّهــا الأحباب، أيُّها الأعزاء... أيُّها الأحباب، أيُّها الأعزاء، أشـفِقوا عليَّ... أيُّها الأحباب!.. أيُّها الأعزاء!..

وكان أيضاً كمن ينصت ليحكم على صوته. يقول كلمة وينصت.

ثم قفز واقفاً، وظلَّ يصبُّ شتائمه البذيئة ساعة بطولها، وعلى نَفَسٍ واحد.

ـ أووو، يا صــفتكم ـ يا نعتكم، هيك وهيــك! ـ راح يصرخ وهو يقلب عينيه المحتقنتين بالدم. ـ الإعدام فلتعدِموني، وإلا... أووو، يا صفتكم ـ يا نعتكم...

وكان الجنــدي الأبيض كالطباشـير يبكي من الحزن، ومن الرعب، ويصـوِّب بندقيته إلى الباب ويصرخ بلا حول ولا قوّة:

ـ سأطلق عليك النار! والله، سأطلق عليك النار! هل تسمع!

إلا أنــه لم يجرؤ على إطلاق النار، لأنهــم لم يطلقوا النار يوماً على المحكومين بالإعدام إذا لم يكن هناك عصــيانٌ حقيقي. أمّا الغجري فكان يصرف بأسـنانه ويسـبُّ ويبصق. فدماغه البشري، الذي وصـل إلى خطٍّ رفيع للغاية بين الحياة والموت، قد تناثر أجزاء مثل كتلة طين يابسة وقد أُشبِعت تجفيفاً.

عندمـا جاؤوا في الليـل إلى الزنزانة ليأخذوا الغجـري إلى الإعدام تحرّك كثيراً وكأنه عاد إلى الحياة. وأحسَّ بمزيد من الحلاوة في فمه، وكان لُعابه يتجمّع دون توقّف. غير أن خدَّيه احمرّا قليلا، وبرق في عينيه مَكرُه القديم، الهمجي بعض الشيء. وبينما كان يرتدي ثيابه سأل الموظّف:

ـ ومَن الذي سيتولّى الشنق؟ هل هو شخص جديد؟ قد لا يكون لديه خبرةٌ بعدُ.

ـ ليس لك أن تقلق حول هذا الموضوع، ـ أجابه الموظّف بجفاف.

ـ وكيف لا أقلـق، حضرتَكم، وأنا من سيشـنقونه، وليس أنت. مطلوبٌ منك

أنت على الأقلّ ألا تبخلْ بالصابون الحكومي من أجل حبل المشنقة.

ـ حسناً، حسناً، أرجوك أن تسكت.

ـ أم أنه أكل كلّ ما عندكم من الصابون، ـ وأشار الغجري إلى الناظر، ـ انظرْ إلى بوزُه كيف يلمع. ـ اسكتْ!

ـ حقّاً، لا تبخلْ!

وقهقـه الغجري، إلا أن الحلاوة راحت تـزداد في فمه، وفجأة بدأ الخدَر يدبّ في رجليه على نحوٍ غريب. ومع ذلك، فإنه استطاع أن يصرخ وهو يخرج:

ـ هاتوا عربة الكونت بِنغالسكي!

٥ . قبّليه واصمتي

–تمّ الإعلان عن قرار الحكم في صيغته النهائية بخصوص الإرهابيين الخمسة، ثم أُبرِم الحكم في اليوم نفسه. لم يقولوا للمحكومين متى سيكون تنفيذ الإعدام. غير أنهم كانوا يعرفون، وَفقاً لما كان يجري عادة، أنهم سيُشنَقون في الليلة نفسها، أو في الليلة التالية، على أبعد تقدير. وعندما عرضوا عليهم أن تكون المقابلة مع أهاليهم في اليوم التالي، أي يوم الخميس، أدركوا أن تنفيذ الإعدام سيكون يوم الجمعة عند الفجر.

–لم يكن لتانيا كوفالتشوك أهل، ومَن كان لها من الأقرباء كانوا يعيشون في أماكن نائية، في روسيا الصغرى[٧]، وهيهات حتّى أن يكونوا قد عرفوا بالمحاكمة وبالإعدام المرتقب. ولم يكن متوقّعاً إطلاقاً أن يكون هناك أهلٌ عند موسيا وفيرنر، بوصفهما مجهولين لم يصرِّحا باسميهما الحقيقيين. ولم يكن أحد بانتظار اللقاء مع والديه إلا اثنان، هما: سيرغي غولوفين، وفاسيلي كاشيرن. وكان الاثنان كلاهما يفكّران بهذا اللقاء برعب وحزن. ولكن لم تواتِهما الجرأة على حرمان الأهل المسنين من حديثٍ أخير، وقبلة أخيرة.

وقد تعذّب سيرغي غولوفين على وجه الخصوص بسبب هذا اللقاء المرتقب. ذلك أن حبّه لأبيه وأمّه كان قويّاً، وقد التقى معهما قبل مدّة قصيرة، وهو الآن مرعوب ممّا سيكون. ذلك أن الإعدام بحدّ ذاته، بكل غرابته الرهيبة، وبجنونه الذي يشلّ الدماغ، كان في تصور المخيِّلة أهون، وخُيّل له أنه ليس

٧– روسيا الصغرى في العهد القيصري هي ما يعرف اليوم بجمهورية أوكرانيا. ـ م.

رهيباً وحسب مثل هذه الدقائق المعدودة، القصيرة وغير المفهومة التي كأنها تقف خارج الزمن، كأنها خارج الحياة نفسها. كان دماغه البشري يرفض أن يفهم كيف ينظر، ماذا يفكّر، وماذا يقول. إن أكثر الأشياء بساطة واعتيادية، أي أن يأخذه من يده فيقبّلها ويقول: "يعطيك الصحة[٨]، يا أبي»، بدا له رهيباً رهبة لا توصف في زيفها الفظيع، اللاإنساني، المجنون.

بعد إعلان الحكم لم يضعوا المحكومين في مكان واحد معاً، كما كانت تتوقع كوفالتشوك، بل أبقوا كلا منهم بمفرده. وطول الصباح، حتى الساعة الحادية عشرة، حين جاء والده، كان سيرغي غولوفين يمشي في الزنزانة على نحو مسعور، يعبث بشعر لحيته، ويقطّب بتعاسة ويتمتم. وكان يتوقف أحيانا، وهو في عزّ مشيه، فيستنشق ملء صدره هواء ثم ينفخه مثل مَن أمضى وقتاً طويلاً تحت الماء. غير أنه كان فيه من فائض الصحة وفتوّة الحياة ما جعل دمه حتى في هذه الدقائق من العذابات القصوى يغلي تحت جلده فيتضرّج خدّاه، وتشعُّ عيناه الزرقاوان وضّاءتَين وساذجتين.

غير أن كل شيء جرى على نحوٍ أفضل ممّا توقّع سيرغي.

فأوّل من دخل الغرفة التي جرى فيها اللقاء هو والد سيرغي، العقيد المتقاعد نيكولاي سيرغيفتش غولوفين. كان أبيض اللون تماماً كلّه: وجهه، ولحيته، وشعره، ويداه، وكأنه تمثال من الثلج ألبَسوه ثوبَ إنسان. وكان يرتدي ذلك المعطف الرسميّ العتيق نفسه، ولكنّه الآن منظّف جيداً، تفوح منه رائحة البنزين، وقد ثبّتت عليه رتيبة حديدية عرضانياً. دخل بصرامة واستعراض، بخطوات ثابتة، متقنة. ومدّ يده البيضاء الجافّة وقال بصوتٍ عالٍ:

٨–لا تعني: السلام عليكم، أو مرحبا، كما درج المترجمون على القول. بل هي (et.)iuvtsvardz صيغة السلام بالروسية
حرفياً الصيغة المستعملة في بلدان المغرب العربي حتى اليوم: "يعطيك الصحة"، وكذلك في كثير من أريافنا السورية: "يعطيك العافية". ـ م.

- يعطيك الصحة، يا سيرغي!

كانت الأم تسير خلفه وتبتسم بطريقة غريبة. ولكنها أيضاً مدّت له يدها، وكرّرت بصوتٍ عال:

- يعطيك الصحة، يا سيريوجِنكا[٩]!

ثم قبّلته على شفتيه وجلست صامتة. لم تُلْقِ بنفسها عليه، ولم تبكي، ولم تصرخ، ولم تفعل شيئاً فظيعاً كان يتوقّعه سيرغي، وإنما قبّلته وجلست صامتة. حتى إنها عدّلت ثوبها الحرير الأسوَد بيديها المرتجفتين.

لم يعرف سيرغي أن العقيد أمضى الليلة الفائتة كلّها في مكتبه الصغير الذي أقفله على نفسه واستنفر قواه جميعاً لرسم هذا الطقس. "يجب علينا أن نخفّف على ابننا الدقيقة الأخيرة، لا أن نُثقلها" - اتّخذ العقيد قراراً حازماً، ووزن بدقة كلَّ جملة ممكنة في الحديث غداً، وكل حركة. ولكنه أحياناً كان يخطئ ويُضيع حتّى ما تسنّى له أن رتّبه، فيبكي بكاء مريراً في زاوية الديوان المغطّى بمشمّع سميك. وفي الصباح أوضح لزوجته كيف يجب عليها أن تتصرّف وقت اللقاء.

- المهمّ، قبّليه واصمتي! - علّمها. - وبعد ذلك تستطيعين أن تتكلّمي، بعد مُضيّ قليل من الوقت. أمّا عندما تقبّلينه فاصمتي. لا تتكلّمي فوراً بعد أن تقبّليه، فهمتِ؟ وإلا قلتِ ما لا ينبغي قوله.

- فهمتُ، يا نيكولاي سيرغيفتش، - أجابت الأمّ وهي تبكي.

٩- سيريوجا وسيريوجنكا هما تصغير اسم سيرغي، وهما أيضاً صيغة التحبُّب والتدليل من هذا الاسم. والأب هنا ينادي ابنه إلا باسمه الكامل دائماً باستثناء لحظة الوداع الأخيرة، حيث يخاطبه بـ سيريوجا، بينما تنادي الأم ابنها بأكثر صيَغ اسمه رقة ودلالاً: سيريوجِنكا. - م.

ـ ولا تبكي. أجارك الله من البكاء! فإنك ستقتلينه إذا بكيتِ، أيتها العجوز!

ـ ولماذا أنت نفسك تبكي؟

ـ معك لا بد من البكاء. يجب ألا تبكي، فهمتِ؟

ـ حسناً، يا نيكولاي سيرغيفِتش.

أراد في العربة أن يكرِّر نصيحته مرة أخرى، ولكنه نسـيَ. فسـافرا صامتين، منحنيين، كلاهما مكللان بالشـيب ومسـنّان، يفكّران، فيما كانت المدينة ماضـية في ضوضـائها المرحة. إنه أسـبوع المَرْفَع[١٠]، وفي الشـوارع صخب وكثير من الناس.

جلسـا، واتّخذ العقيد الوضـعية المقرّرة، بعد أن وضع يده اليمنى على صدره تحـت طرف المعطف. جلسِ سـيرغي لحظة واحدة ورأى عن كثـبٍ وجه أمّهِ المجعَّد، فهبَّ واقفاً.

ـ اجلس، يا سيريوجِنكا، ـ طلبت إليه أمّه.

ـ اجلس، يا سيرغي، ـ أكّد الأب.

صمتوا. وابتسمت الأم ابتسامة غريبة.

ـ كم سعينا من أجلك، يا سيريوجِنْكا.

ـ عبثاً فعلتم، يا ماما...

قال العقيد بحزم:

---

١٠ ـ عيد ديني عند المسيحيين الأرثوذكس يسبق عيد الفصح. ـ م.

ـ كان واجباً علينا أن نفعل ذلك، يا سيرغي، لكي لا تظنّ أن والديك تخلّيا عنك.

صمتوا مرة أخرى. كان مرعباً نطقُ كلمة، وكأن كل كلمة في اللغة فقدت معناها و لم تعد تعني إلا شيئاً واحداً هو الموت. نظر سيرغي إلى المعطف النظيف الذي يرتديه والده وتفوح منه رائحة البنزين، وخطر له: "ليس عنده الآن عسكري يخدمه، فهو مَن نظّفه إذاً. كيف لم أنتبه إلى ذلك من قبل، عندما كان ينظّف معطفه؟ لعلّه نظّفه في الصباح؟". وفجأة سأل:

ـ وكيف حال أختي؟ هل هي في صحة جيدة؟

ـ نينَتشكا لا تعرف شيئاً. ـ أجابت أمّه على عجَل.

إلا أن العقيد أوقفها بحزم:

ـ لماذا الكذب؟ البنت قرأت الخبر في الجرائد. دَعي سيرغي يعرف أن جميع... أقربائه... في هذا الوقت... كانوا يفكّرون و...

و لم يستطِع أن يواصل فتوقّف. وفجأة تجعّد وجه أمّه في الحال، وتهدّل، وارتعش، وصار مبللاً وهمجياً. وبجنون حملقت عيناها الحائلتان، وأخذت أنفاسُها تعلو، وتزداد عدداً، وقِصَراً.

ـ سـ... سير... سيـ... ـ طفِقت تكرّر دون أن تحرّك شفتيها. ـ سيـ...

ـ ماما !

مشى العقيد إلى الأمام وهو يهتزّ كلّه، بكلّ ثنية في معطفه الرسمي، بكلّ تجعيدة في وجهه، غير مدرك كم هو نفسه مرعبٌ في بياض الموتى الذي يعلوه، وفي صلابته القانطة المضنية، وقال لزوجته:

ـ اصمتي ! لا تعذّبيه! بلا عذاب! بلا عذاب! إنه أمام الموت! لا تعذّبيه!

كانت قد صمتت خائفة، فيما استمرّ هو يهزُّ قبضتيه المشدودتَين أمام صدره مهدّئاً ويؤكّد:

ـ لا تعذّبيه !

ثم تراجع إلى الخلف واضعاً يده المرتجفة في صدر معطفه الرسمي، وبشفتيه المبيضّتين سأل بصوتٍ عالٍ، فيه تعبير عن قلق متعاظم:

ـ متى؟

ـ غداً صباحاً، ـ بشفتين مبيضّتين أيضاً أجاب سيرغي.

كانت الأم خافضة بصرها، تلوك شفتيها وكأنها لا تسمع أي شيء. وفيما هي مستمرة في لوك شفتيها، قالت كمن سقطت منه هذه الكلمات البسيطة والغريبة:

ـ نينَتشكا طلبت مني أن أقبّلك، يا سيريوجِنْكا.

ـ قبّليها عنّي، ـ قال سيرغي.

ـ حسناً. وعائلة خفوستوف أيضاً تبلّغك السلام.

ـ أي خفوستوف؟ آ ـ ا، نعم!

فقاطعه العقيد:

ـ حان وقت الذهاب. انهضي، أيّتها الأمّ، حان الوقت.

وساعد الاثنان الأمّ الواهنة على النهوض.

ـ ودّعيه ! ـ أمرها العقيد. ـ ارسمي عليه إشارة الصليب.

ففعلت كل ما قيل لها. ولكنها، وهي ترسم إشارة الصليب وتقبِّل ابنها قبلة قصيرة، هزّت رأسها وأكّدت بلا وعي:

ـ كلا، ليس هكذا. كلا، كلا. وكيف لي فيما بعد؟ كيف سأقول؟ كلا، ليس هكذا.

ـ وداعاً، يا سيرغي! ـ قال الأب.

ثم تصافحا، وتبادلا قبلة قويّة، ولكنها قصيرة.

ـ أنت... ـ بدأ سيرغي.

ـ ماذا؟ ـ سأل الأب متلعثماً.

ـ كلا، ليس هكذا. كلا، ليس هكذا. وكيف سأقول؟ ـ كررت الأم وهي تهز رأسها. وتسنّى لها أن تعود إلى الجلوس متمايلة بكل جسمها.

ـ أنت... ـ بدأ سيرغي مرة أخرى.

وفجأة تغضّن وجهه مشفقاً، كالأولاد، وفي الحال ترقرقت الدموع في عينيه. وعِبر الشق المشعِّ فيهما شاهد عن كثبٍ وجه أبيه الأبيض وفيه عينان دامعتان كعينيه.

ـ أنت، يا أبي، إنسانٌ نبيل.

ـ ماذا تقول! ماذا تقول! ـ خاف العقيد.

وفجأة سقط رأسه على كتف ابنه، كأنه انهدَّ. لقد كان في ما مضى أطول قامة من سيرغي، أمّا الآن فقد بات قصير القامة، يستلقي رأسه الجاف المكلل بالشعر كتلةً بيضاء على كتف ابنه. وكان كلاهما صامتَين وهما يتبادلان القبل بنهم: سيرغي يقبِّل الشعر الأبيض المنفوش، والأب يقبِّل ثوب السجن.

ـ وأنا؟ ـ فجأة نطق صوتٌ عالٍ.

التفتا، وإذا بالأم واقفة، مائلة برأسها إلى الخلف، تنظر بغضبٍ، وبحقدٍ تقريبا.

ـ ما لكِ، أيّتها الأمّ ؟ ـ صاح العقيد.

ـ وأنا ؟ ـ قالت وهي، تهزّ رأسها، بتعبيرٍ جنوني. ـ أنتما تتبادلان القبلات، وأنا؟ أنتم رجال، أليس كذلك؟ وأنا؟ وأنا؟

ـ ماما ! ـ اندفع إليها سيرغي.

وعندها وقع ما لا يمكن، ولا يجوز أن يُحكى.

وكانت آخر كلمات العقيد:

ـ أباركك قبل الموت، يا سيريوجا. فلتمُت بشجاعة، مثل ضابط.

وخرجـا. على نحوٍ ما خرجا. لقد كانا هنـا، ووقفا، وتكلّما ـ وفجأة خرجا. هنا كانت الأم جالسـة، وهنـا كان الأب واقفاً ـ وفجأة خرجـا على نحوٍ ما. وحين عاد سـيرغي إلى زنزانته استلقى على سريره، ووجهُه إلى الجدار، لكي لا يراه الجنود، وبكى طويلاً. ثم تعب من الدموع وغطّ في نوم عميق.

لم يأت لوداع فاسـيلي كاشـيرِن إلا أمّه. أمّا أبوه، وهو تاجر غنيّ، فلم يرغب بالمجيء. اسـتقبل فاسيلي أمّه العجوز وهو يتمشّى في الغرفة ويرتعد من البرد، رغم أن الجوّ كان دافئاً بل وحارّاً. وكان الحديث قصيراً، وثقيلاً.

ـ مـا كان الأمر يسـتأهل منك أن تأتي، يـا ماما. إنك لن تفعلـي إلا أن تعذّبي نفسك وتعذبيني.

ـ لِمَ هذا، يا فاسيا؟ لماذا فعلتَ هذا! يا إلهي!

وانخرطت العجوز بالبكاء، وراحت تمسح دموعها بأطراف منديلها الصوفِ

الأسوَد. وعلى جَري العادة التي كانت عنده وعند إخوته في الصراخ على الأم التي لا تفهم شيئاً توقّف وقال بغضب وهو يرتعد من البرد:

ـ انظر! لقد كنت أعرف! فأنتِ لا تفهمين أيَّ شيء، يا ماما! أيَّ شيء!

ـ طيِّب، طيِّب، حسناً. هل أنت بردان؟

ـ بردان... ـ قاطعها فاسيلي وعاد إلى المشي وهو يرمق أمَّه بطرف عينه حانقاً.

ـ ربَّما تكون قد أُصبت بالزكام؟

ـ أُفّ، يا ماما، وأيُّ زكام هنا، ما دام...

وأشاح بيده يائساً. أرادت العجوز أن تقول: «لقد طلب أبوك منذ يوم الإثنين أن أُعِدَّ زلابية» ـ ولكنها خافت وصاحت:

ـ لقد قلتُ له، هذا ابنٌ هذا، اذهبْ وسامحْه. كلا، عاند التيس العجوز...

ـ فليأخذْه الشيطان! أيُّ أبٍ لي هذا! مثلما كان طول حياته سافلاً، ظلَّ سافلاً.

ـ فاسِنْكا، تقول هذا عن أبيك! ـ واشرأبّت العجوز بقامتها كلِّها إعراباً عن اللوم.

ـ عن أبي.

ـ عن أبيك الذي ولدك!

ـ أيُّ أب ولدني هو.

كان الموقف همجياً وسخيفاً. وبينما الموت على مقربة منه، إذا بشيء صغير، فارغ، لا حاجة إليه، شرع يكبر، وطقطقت الكلمات مثل قشر جوزة فارغة تحت القدم. وبسبب الحزن، بسبب انعدام الفهم أبداً، ذلك الانعدام الذي كان مدى الحياة جداراً يحول بينه وبين ذويه، انعدام الفهم الذي كان، حتى في

هذا الوقت، في الساعة الأخيرة قبل الموت، يحملق على نحوٍ همجي بعينيه الصغيرتين الغبيتين، صرخ فاسيا باكياً تقريباً:

ـ فلتفهمي أنتِ أنهم سيشنقونني! سيشنقونني! هل تفهمين أم لا؟ سيشنقونني!

ـ لو أنك لم تؤذِ الناس، لَما كانوا... ـ صاحت العجوز.

ـ يا إلهي! ما هذا! إن هذا لا يحدث حتى عند الوحوش. هل أنا ابنك أم لا؟

وانخرط بالبكاء وجلس في الزاوية. وانخرطت العجوز أيضاً بالبكاء في زاويتها. كانا عاجزين عن الذوبان معاً ولو لرقّة جفن في شعور من الحب يواجهان به رعب الموت المرتقب. يبكيان بدموعٍ لا تدفِئ القلب. إنها دموع الوحدة.

قالت الأم:

ـ ها أنت تقول هل أنا أمّك أم لا، وتلومني. ولكنني خلال هذه الأيام شبتُ تماماً، وصرت عجوزاً. وأنت تقول وتلومني.

ـ طيِّب حسناً، حسناً، يا ماما! سامحيني. لقد آن لك أن تذهبي. قبِّلي عنّي إخوتي هناك.

ـ ألستُ أمّاً؟ ألستُ متحسِّرة؟

وأخيراً خرجت. كانت تبكي بمرارة وهي تمسح دموعها بأطراف منديلها، لا ترى الطريق. وكلّما ابتعدت عن السجن ازدادت سخونةُ ما تذرفه من دموع. فمضت عائدة إلى السجن. ولكنها ضاعت تماماً في هذه المدينة التي ولدت وترعرعت وشاخت فيها. وقادتها قدماها إلى بستان صغير قاحل، فيه بضعة أشجار هرِمة مكسَّرة، وجلست على مقعد مبلّلٍ ذاب ثلجه. وفجأة أدركت: غداً سيشنقونه.

هبّت العجوز واقفة، وأرادت أن تركض، وفجأة أصاب رأسها دَوارٌ قويٌّ فسقطت. كان جليد الدرب قد ذاب قليلا، وكان زلقاً، فلم تستطع العجوز النهوض، فراحت تدور حول نفسها، تحاول النهوض على مرفقيها وركبتيها فتنقلب على جنبها كل مرة. وانزلق المنديل الأسوَد عن رأسها كاشفاً على قفا رأسها صلَعاً وسط شعرها الأشيب الوسخ. ولسبب ما خُيّل لها أنها على مائدة عرس، إنه زواج ابنها، وقد شربت نبيذاً وثملت ثملاً شديداً.

ـ لا أستطيع. أُقسم بالله، لا أستطيع! ـ راحت ترفض وهي تهزّ برأسها، وتحبو على السطح الجليدي البليل، وظلوا يصبّون لها النبيذ، وظلّت تشرب.

وبات يؤلمها قلبُها من ضحك السُّكْر، ومن الضيافات، ومن الرقص الهمجي، ـ وظلّوا يصبّون لها النبيذ. ظلّوا يصبّون.

٦. الساعة تركض

-في القلعــة، حيــث كان الإرهابيون المحكومون محبوسـين، كان يوجد برجُ أجراسٍ فيه ســاعة قديمة. كلّ ســاعة، كلّ نصــف ســاعة، كل ربع ساعة كانت تُصــدِر رنيناً مديــداً، رنيناً كئيباً يــذوب في الأعالي ببطء مثلَ نداء بعيد، شــاكٍ تطلقــه الطيــور المهاجــرة. في النهار كانــت هذه الموسـيقى الغريبــة والكئيبة تضـيع في ضـجيج المدينة والشـارع الكبير المـلـيء بالناس الذي يمتــدُّ بمحاذاة القلعة. صــخبُ عربات تُرام، وقعُ حوافر خيل، صراخ سـيارات تتمايل بعيداً إلى الأمام. جاء إلى أسـبوع المرفع من ضـواحي المدينة عـدد كبير من الحوذيّين الفلاحـين في ثيـاب العيد المزركشــة، وكانــت الأجراس الصـغيرة في أعناق خيولهم الصـغيرة الحجم تملأ الجــوّ بالرنين. والحديث الــذي كان يدور بينهم حديث سُــكرٍ، حديثُ عيدٍ مرِح. وكان هناك انسـجام كبير بين هذه الفوضى الكبــيرة من الأصــوات وبدايات ذوبان ثلوج الربيع، وبُرَك الماء الصـغيرة عند حوافّ البيوت، والأشــجار التي اسـودّت فجأة في الحدائق الصغيرة. وكانت تهــبّ من البحر دفقات عريضــة، رطبة من الهواء الدافــئ، ويُخيَّل أنه كان في مقدور المرء أن يشــاهد بعينيه كيف كانت جزيئات الهواء الغضّــة تتطاير محلّقة متحابّة نحو آفاق حرّةٍ لا حدود لها، وتضحك وهي تطير.

في الليل كان الشارع يستسلم للهدوء في الضوء الوحداني المنبعث من شموس كهربائيــة كبـيرة. والقلعة الضــخمة، التي لم يكن في جدرانها الملســاء ضــوء واحد، كانت في ذلك الوقت تغرق في الظلام والسكينة، مطوّقة نفسها بحزام من الصمت والثبات والظلمة، يفصلها عن المدينة الحيّة، المتحركة أبداً. وعندئذ كانت تكّات الســاعة تغدو مســموعة. كان لحنٌ غريب لا تعرفه الأرض يولَد

وينطفئ ببطء وكآبة في الأعالي. ثم يعود ليولد من جديد، يخدع السمع، ويرنّ شاكياً، ثم بهدوء ـ يتقطّع ـ ويرنّ من جديد. ومثل قطرات بلّورية، شفّافة، كبيرة كانت الساعات والدقائق تتساقط من علوٍّ مجهول في كأس معدنية تبعث رنيناً خفيضاً. أو كأن طيوراً مهاجرة تطير.

وحْدَه هذا الرنين في الليل والنهار كان يترامى إلى الزنزانة التي كان المحكومون محبوسين فيها كلٌّ بمفرده. وعبر السطح، وعبر سماكة الجدران الحجرية كان الرنين يتسرّب على نحوٍ غير ملحوظ ليعود فيأتي ثانية وعلى نحوٍ غير ملحوظ أيضاً. كانوا ينسونه أحياناً ولا يسمعونه؛ وفي بعض الأحيان كانوا ينتظرونه بيأس، وهم يعيشون بين رنّة ورنّة غير مصدّقين السكون. كان السجن مخصصاً لعتاة المجرمين فقط، وكانت تُطبّق فيه قواعد من نوع خاص، قواعد صارمةٌ، شديدة وقاسية مثلَ زاوية جدار القلعة. وإذا ما كان في الظلم نُبْلٌ، كان نبيلاً ذلك السكون الأصمّ، الميت، الأخرس بمهابة، ذلك السكون الذي يُسمَع فيه الخفيف وأرقّ الأنفاس.

وفي هذا السكون المهيب الذي يهدهده رنين الدقائق الهاربة الحزين كان المعزولون عن كل ما هو حيٌّ، أولئك الأشخاص الخمسة، المرأتان والرجال الثلاثة، ينتظرون قدوم الليل، والفجر والإعدام، وكان كلٌّ منهم يستعدُّ لاستقباله على طريقته.

٧. لا وجود للموت

كانت تانيا كوفالتشوك، مثلما هي في حياتها كلِّها، لا تفكر إلا بالآخرين وليس بنفسها أبداً. كذلك كانت الآن أيضاً منذورة للآخرين فقط، وتشتاق إليهم بقوّة. كانت تتصوَّر الموت بقدْر ما هو شيء معذِّب، ينتظر سيريوجا غولوفين وموسيا والآخرين، وكأنما لا علاقة له بها هي نفسها إطلاقاً.

ومكافأةً لنفسها على ما أرغمت نفسها عليه من حزم في المحكمة، كانت تبكي ساعات طويلة مثلما تُحسن البكاءَ النساءُ المسنّات اللواتي عرفن كثيراً من المصائب، أو مثلما تُحسن البكاءَ مَن هنَّ شابّات ولكنهنّ في غاية الشفقة وغاية الطيبة. واحتمال ألا يكون عند سيريوجا تبغٌ، وأن يكون فيرنر محروماً من شايه الثقيل المألوف، وهذا بالإضافة إلى أنهما يجب أن يموتا، كان يعذّبها ربّما ليس بأقلَّ ممّا تعذبها فكرة الإعدام نفسها. فالإعدام شيء حتمي، بل وغريب عنها ولا يستحق التفكير به، أمّا ألا يكون لدى الإنسان تبغٌ، بل وقبل الإعدام أيضاً، فإن ذلك شيء لا يطاق إطلاقاً. وتذكّرت واسترجعت تفاصيل غالية عليها من العيش المشترك، فتجمّدت من الخوف وهي تتخيَّل لقاء سيرغي مع والديه.

لقد خالجها إشفاق خاص على موسيا. فقد بات يخيَّل لها منذ مدة طويلة أن موسيا تحب فيرنر. وعلى الرغم من أن ذلك لم يكن صحيحاً البتّة، فإنها مع ذلك كانت تحلم لهما كليهما بشيء طيِّب ومشرق. يوم كانت موسيا طليقة كانت تلبس خاتماً من الفضة عليه رسمُ جمجمة وعظم محاطَين بإكليل من شوك القتاد. وكثيراً ما كانت تانيا كوفالتشوك تنظر بألم إلى هذا الخاتم بوصفه رمزاً لهلاكٍ محتوم، وكانت بين المزاح والجد تتوسّل إلى موسيا كي تخلعه.

ـ إهديني إيّاه، ـ توسّلتْ إليها.

ـ كلا، يا تانتشكا، لن أُهديك إيّاه. فقريباً سيكون في إصبعك خاتمٌ آخر.

ولسببٍ ما كانوا هم، بدورهم، يفكّرون أنها سوف تتزوّج حتماً وفي وقت قريب. وكان هذا يضايقها، فهي لم تكن راغبة بأيّ زوج. وبينما كانت تتذكّر أحاديثها هذه الشبيهة بالمزاح مع موسيا، وأن موسيا مقضيٌّ عليها الآن بالموت حقّاً، كانت تغصّ بالدموع وحنان الأمومة. وكانت كلّما دقّت الساعة ترفع وجهها المشبع بكاء وتتنصّت لتعرف كيف هم هناك، في تلك الزنزانات، يتلقّون نداء الموت، هذا النداء المديد، الملحّ.

وكانت موسيا سعيدة.

كانت تعقد يديها خلف ظهرها وهي في ثوب تلبسه السجينات كبيرٍ عليها، يجعلها شبيهة شبهاً غريباً برجل، بصبي مراهق يلبس ثوباً ليس له، وتمشي مشية متّزنة لا تتعب. كان كُمّا الثوب طويلين عليها، فطوتهما، ومن فتحتيهما الواسعتين برزت يداها النحيلتان، الطفليتان تقريباً، الهزيلتان، بروزَ ساق زهرة من فتحة إبريق قبيح، وسخ. وكان القماش الخشن يحكّ رقبتها البيضاء الدقيقة ويشوّكها، فيما كانت موسيا في حالات نادرة تحرّر حنجرتها بحركة من يديها الاثنتين، وبحذر تتلمّس بإصبعها المكان الذي احمرَّ وازرقَّ فيه جلدُها الملتهب.

كانت موسيا تمشي وتعتذر أمام الناس وهي تضطرب وتتضرّج حمرة. كانت تعتذر لأنها، وهي الشابة، الضئيلة الشأن، التي لم تقدّم إلا القليل وليست بطلة البتة، سوف يذيقونها ذلك الموت الجليل والرائع الذي لقيَه قبلها أبطال وشهداء حقيقيون. كانت تتصوّر، وهي التي تؤمن إيماناً راسخاً بطيبة الناس وبالشفقة والحب، كم الناس قلقون عليها الآن، كم هم يتألّمون عليها، وكم يشفقون.

وكان ذلـك يُخجلها حتى الاحمرار. لكأنها، وهي تموت على حبل المشـنقة، كانت تقوم بفعل مربك عظيم.

لقد طلبت من محاميها في لقائها الأخير معه أن يحصـل لها على سُـمّ، ولكنها سرعـان ما اسـتدركت: ولكن مـاذا إذا ما ظنّ هو والآخـرون أنها تَفعل ذلك تصـنّعاً أو بدافع الجبن، وبدلاً من أن تموت بتواضـع وبطريقة لا تلفت الانتباه فإنها ستثير ضجة أكثر قوّة؟ لذلك أردفت على عجَل:

ـ كلا، لا حاجة إلى ذلك.

فهي لم تكن الآن راغبة إلا بشـيء واحد هو أن تشرح للناس وتقدِّم لهم برهاناً دقيقـاً على أنها ليسـت بطلة، وأن الموت ليسـ رهيباً إطلاقـاً، ولا داعيَ لأن يشـفقوا عليها، ويهتمّوا بها. أن تشرح لهم أنها ليست مذنبة على الإطلاق في كونهم سـوف يذيقونها، وهي الشابة، الضـئيلة الشأن، هذا النوع من الموت، ويثيرون بسببها كلّ هذا الضجيج.

وبوصفها إنسـاناً يتهمونها حقاً، كانت موسيا تبحث عن مسوِّغات، وتحاول أن تجد أيَّ شـيء يرفع من شـأن تضـحيتها ويضـفي على هذه التضـحية قيمة حقيقية، فتقول في سرِّها:

ـ بالطبع أنا فتيَّة، وكان يمكن لي أن أعيش طويلاً بعدُ، ولكنْ...

وما إن يخفت ضوء الشمعة تحت أشعة الشمس المشرقة حتى يتراءى لها كلّ من صباها وحياتها باهتاً وقاتماً أمام ذلك الشيء العظيم، الوضّاء الذي سوف يكلِّل رأسها المتواضع بهالة من نور. لا عذر.

ولكنْ، لعل ذلك الشـيء الخاص الذي تحمله في نفسـها هو الحب اللامحدود، الاسـتعداد اللامحدود لاجـتراح المأثرة، الازدراء اللامحـدود للذات؟ فهي حقّاً

ليست مذنبة في أنهم لم يسمحوا لها بأن تقوم بكل ما كانت تستطيع وتريد القيام به. لقد قتلوها على عتبة المعبد، عند قاعدة المذبح.

ولكنْ إذا كان الأمر كذلك، إذا كانت قيمة الإنسان لا تتأتّى ممّا قام به فقط، بل وممّا كان يريد أن يقوم به أيضاً، فإنها عندئذ... عندئذ تستحقّ إكليل الشهادة.

«أحقّاً ـ فكّرت موسيا بخجل، ـ أحقاً جديرة أنا؟ جديرة بأن يبكي عليَّ الناس، وأن يقلقوا، عليَّ أنا، هذه الصغيرة الضئيلة الشأن؟».

وتأخذها فرحة لا توصف. ما من شكوك، ولا تردُّد، لقد قُبِلَت. إنها تنضمّ شرعاً إلى صفوف أولئك الصُّفوة الذين يمضون منذ الأزل عبر المحرقة، والتعذيب، والإعدام إلى أعالي السماء. إلى النور والسكينة وإلى سعادة بلا ضفاف، مشعشعة بهدوء. كأنها كانت قد ابتعدت عن الأرض واقتربت من الشمس التي لا تُرى، شمسِ الحقيقة والحياة وهي تحلِّق في نورها دون جسد.

«وهذا هو الموت. فأيُّ موت هذا؟» ـ تفكّر موسيا بهناء.

ولو اجتمع إليها العلماء، والفلاسفة، والجلادون من جميع أرجاء الدنيا وصفّوا أمامها الكتب، والمشارط، والبلطات، وحبال المشانق وراحوا يُثبتون لها أن الموت موجود، وأن الإنسان يموت ويُقتَل، وأنه لا وجود للخلود، لما أقنعوها. إذ كيف لا يكون الخلود موجوداً إذا كانت هي خالدةً منذ الآن؟ فعن أيِّ خلودٍ بعدُ، عن أيِّ موتٍ بعدُ يمكن الكلام ما دامت هي منذ الآن ميتة وخالدة، حيّة في الموت مثلما كانت حيّة في الحياة؟

ولو أنهم جاؤوا إليها في زنزانتها حاملين نعشها وفيه جسدها وهو يتفسّخ، فملؤوا الزنزانة برائحته النتنة، وقالوا:

ـ انظري ! هذه أنت !

لنظرت وأجابت:

ـ كلا، هذه ليست أنا.

وإذا مـا راحوا يحاولون إقناعها، وهم يخوّفونها بمنظر التفسّـخ الشـنيع، بأن هذه هي، أجل هي! ـ لأجابت موسيا مبتسمة:

ـ كلا. بـل أنتـم من تظنون أن هـذا أنا، إلا أن هـذا ليس أنا. بل أنـا هذه التي تتكلّمون معها، فكيف أستطيع أن أكون هذا؟

ـ ولكنك سوف تموتين وتصبحين هذا.

ـ كلا، إنني لن أموت.

ـ سوف يشنقونك. ها هي الأنشوطة.

ـ سـوف يعدمونني، ولكنّي لن أموت. كيف أستطيع أن أموت ما دمت خالدة منذ الآن؟

ولكان تراجع العلماء والفلاسفة والجلادون وهم يقولون مرتعدين:

ـ لا تلمسوا هذا المكان. إنه مكان مقدّس.

بمَ كانت موسـيا تفكّر أيضـاً؟ إنها كانت تفكّر بأشياء كثيرة لأن خيط الحياة ما كان في نظرهـا ينقطع بالموت، بل يسـتمر ينجدل بهدوء وأنـاة. كانت تفكّر بالرفـاق، وبأولئك البعيدين الذين يعيشـون إعدامهم بكآبـة وألم، وبالقريبين الذين سيصـعدون معهم إلى منصّـة الإعـدام. كانت تتعجّب من فاسـيلي: ما الـذي أخافـه كل هذا الخوف، وقد كان دائماً شـجاعاً جداً، بـل وكان قادراً على أن يمزح مع الموت. فمنذ صـباح يوم الثلاثاء، عندما كانوا، هم وفاسيلي، يركّبون على أحزمتهم الأجهزةَ الناسـفة التي كان يجب بعد بضـع ساعات أن تنفجر بهم بالذات، ارتجفت يدا تانيا كوفالتشـوك من الاضطراب فكان لا بدّ

من اســتبعادها. أمّا فاسيلي فكان يمزح، ويتبسّط، ويُكثر من الحركة، بل وكان بعيداً عن الحذر، فقال له فيرنر:

ـ لا لزوم للاستهتار بالموت.

فما الــذي أخافَه الآن؟ غير أن هذا الخوف غير المفهوم كان شــديد الغرابة عن نفس موسيا، فكفّت سريعاً عن التفكير فيه والتفتيش عن سببه، إذ فجأة اشتدّت بها رغبة اليائســين في أن ترى ســيريوجا غولوفين وتشاركه الضحك من شيء ما. ثم فكّرت، وبمزيد من اليأس تمنّت أن ترى فيرنر وأن تقنعه بشيء ما. وفيما هي تتصوَّر أن فيرنر يمشي إلى جانبها مشيته الدقيقة، الموزونة التي تغرس كعبيه في الأرض، قالت له موسيا:

ـ كلا، أيّها الغالي فيرنر، كلُّ هذا أشياء تافهة، لا أهمية لها البتّة، سواءُ أقتلتَ ن ن أم لا. إنــك ذكيّ، ولكنك تتصرّف وكأنك تلعب لعبتك بالشــطرنج: كأنك تربــح بيدقــاً تلو بيدق، ثــم تحرز النصر. المهم هنــا، يا فيرنر، أننــا نحن بالذات مستعدّون للموت. هل تفهم؟ إذ ماذا يظن هؤلاء السادة؟ هم يظنون أنه ما من شــيء أرهب من الموت. هم أنفسهم من اختلقوا الموت، وهم أنفسهم يخافونه ويخوّفوننا به. حتــى إنني كنت أتمنّى أن أخرج بمفردي لأقف في مواجهة لواء كامل من الجنود وأبدأ بإطلاق النار عليهم من مسدّس براوننغ. فلأكنْ بمفردي، وليكونــوا آلافاً، ولا أقتل أحداً منهم. هذا هو الشــيء الهام، أن يكونوا آلافاً. إذ عندما يقتل آلالافُ شخصــاً واحداً، يكون معنى ذلك أن الواحد هو الذي انتصر. هذه هي الحقيقة، يا فيرنر، أيُّها الغالي.

غير أن هذا أيضــاً كان واضحاً وضــوحاً جعلها لا ترغب في أن تواصل إثباته، ولعلّ فيرنر نفســه قد فهمــه الآن. وربّما لم يرُق لفكرها أصــلاً أن يتوقّف على شيء واحد، فكان مثل طائر خفيف في تحليقه، يرى آفاقاً بلا ضفاف، ويحيط بناظره الفضاءَ كلّه، وكلَّ بهجة الزرقة الحنون، الرؤوم. كانت الساعة لا تتوقف

عن الرنين، تهدهد السكون الأصم؛ وكانت الأفكار تصبّ في هذا الصوت المتناغم، الرائع البعيد، وتبدأ بالرنين أيضاً. فكانت الصور المنزلقة بيسر تغدو موسيقى أيضاً. وكأن موسيا كانت مسافرة إلى مكان ما ذاتَ ليلة هادئة، مظلمة، عبر طريق عريضة مستوية، في عربة تخفق نوابضُها اللينة، وترنّ أجراسها الصغيرة. وقد تراجعت المخاطر والمخاوف جميعاً، وذاب الجسد التعِب في الظلام، وكان الفكر الفرِح في تعبه يدع على مهلٍ صوراً ساطعة، ويتمتع بألوانها وطمأنينتها الهادئة. وتذكرت موسيا أصدقاءها الثلاثة الذين شُنقوا قبل مدة قصيرة، وكانت وجوههم صافية ومنشرحة وقريبة، أقرب من وجوه أولئك الذين ما زالوا أحياء. في غمرة هذا الفرح يفكر الإنسان في الصباح ببيت أصدقاء له سيذهب إليه في المساء والتحيةُ تعلو شفتيه الضاحكتين.

لقد تعبت موسيا من المشي تعباً شديداً. فاستلقت على السرير بحذر واستمرت تحلم بعينين مغمضتين قليلاً. كانت الساعة لا تتوقف عن إطلاقِ رنين مبهَم، تهدهد السكون الأخرس، تغنّي في شواطئها الرنانة صورٌ بهيجة طافية بهدوء. وفكّرت موسيا:

« أحقاً هذا هو الموت؟ يا إلهي، ما أروعَه ! أم ترُى هي الحياة؟ لا أعرف، لا أعرف. سأرى وأسمع».

منذ مدة طويلة، منذ أيام الاعتقال، بدأ سمْعُها يتخيَّل. إنه سمْعٌ موسيقي جداً، تشحذه السكينة التي يدع في ظلها لوحات موسيقية كاملة من ومضات الواقع الشحيحة، وفي ظل خطوات الحرس في الممر، ورنين الساعة، وحفيف الهواء على السطح الحديدي، وصريف مصباح الشارع. في البداية كانت موسيا تخاف تلك اللوحات، وتبعدها عن نفسها مثل هلوَسات مرَضية، ثم أدركت أنها هي نفسها سليمة، وليست مصابة بأي مرض، فراحت تستسلم لها باطمئنان.

وإذا بها الآن فجأة تسمع بصفاء ووضوح كاملين أصوات موسيقا عسكرية. فتحَتْ عينيها بذهول، ورفعت رأسها قليلاً فرأت الليل وراء النافذة، والساعة ترنّ. «مرّة أخرى، إذاً!» - فكّرت بهدوء وأغمضت عينيها. وما إن أغمضتهما حتى عادت الموسيقى تعزف من جديد. كانت تسمع بوضوح خروجَ جنود من وراء زاوية المبنى، من الجهة اليمنى، خروج لواء كامل، والجنود يمرّون بمحاذاة النافذة. كانت أقدامهم تدقّ الأرض المتجمّدة بإيقاع رتيب: واحد - اثنان! واحد - اثنان! - بل وكان مسموعاً صريف جلد جزماتهم أحياناً، وفجأة تنزلق قدم أحدهم قليلاً ثم لا تلبث أن تعتدل. ويزداد اقتراب موسيقى احتفالية عسكرية لا تعرفها إطلاقاً، ولكنها عالية جداً ومرحة. يبدو أن في القلعة عيداً ما.

ها هي الفرقة الموسيقية تصبح قبالة نافذتها، وتمتلئ زنزانتها كلّها بأصوات مرحة، موقّعة متعددة بانسجام. كان أحد الأبواق كبيراً، نحاسياً، شديد النشاز، تارة يتأخّر، وتارة يتعجّل على نحو مضحك. وتشاهد موسيا الجندي الصغير الذي ينفخ في هذا البوق، وسحنته الدؤوبة، فتضحك.

يبتعد كل شيء. تتجمّد الخطوات: واحد - اثنان! واحد - اثنان! ومن بعيد تزداد الموسيقى جمالاً، ومرحاً. ومرّة بعد مرّة يرفع البوق صوتاً نحاسياً بفرح نشاز، وينطفئ كل شيء. ومرة أخرى تعود ساعة البرج إلى الرنين، ببطء، وكآبة، تهدهد السكون بالكاد.

«لقد رحلوا!»، تفكّر موسيا بأسىً خفيف. إنها تتحسّر على الأصوات التي مرّت، والتي كانت مرحة ومضحكة جداً. إنها تتحسّر حتى على الجنود الصغار الذين مروا، لأن هؤلاء الدؤوبين، بأبواقهم النحاسية، وجزماتهم التي تصرِف، مختلفون تماماً عن أولئك الذين تتمنّى أن تطلق عليهم النار من البراونِنغ.

ـ هيّـا، مزيداً من الموسـيقى! ـ ترجوهـم بلطف. فيأتون مـرة أخرى. ينحنون عليهـا، يحيطون بها مثلَ غيمة شـفّافة ويرفعونها إلى الأعلـى، إلى حيث تحلّق طيور مهاجرة وتزعق مثل المنادين. إلى اليمين، إلى اليسار، إلى فوق، إلى تحت، هكـذا تزعـق مثل المناديـن. طيور تنادي، تبشّـر، تعلن عن طيرانهـا إلى بعيد. وتخفق بأجنحتها بحركة واسـعة، ويحملها الظلام مثلما يحملها النور أيضاً، ومن الأسـفل تتلألأ المدينة المشعشـعة وتنعكس زرقاء على صـدورها البارزة التي تشـقّ الهواء. وتزداد دقّات قلب موسـيا انتظاماً، وتزداد أنفاسـها هدوءاً وانخفاضـاً. إنها تستسلم للنوم. وجهها تعِبٌ، شاحب؛ تحت عينيها دائرتان، ويداها البضّـتان شديدتا الأنوثة والنحول كأنهما يدا طفلة صغيرة، ولكنّ على شـفتيها ابتسـامة. غداً، عندما تشرق الشمس سـيكون هذا الوجه البشري قد تشوّه بتجعُّدات غير بشرية، وسيكون دماغها قد احتقن بدم كثيف، وستخرج عيناهـا المزجّجتـان مـن محجريهما ، ـ أمّا اليـوم فهي نائمة بهدوء، تبتسـم في خلودها العظيم.

لقد غفت موسيا.

السـجن تدور فيه عجلة حياته الخاصـة، تدور صـمّاء ومرهفـة، عمياء وثاقبة النظـر، مثـل القلق الأبدي نفسـه. هناك من يمشـون في مكان مـا، هناك من يتهامسـون عن مـكان ما. ثمة صـليل بندقية في مكان ما. يبـدو أن هناك من صرخ. وربما لم يصرخ أحد، وما ذلك إلا تخيُّل تسبِّبه السكينة.

ها هـو باب الكوّة في الباب يسـقط منفتحاً دون ضـجيج، فيظهر في فراغها القاتم وجهٌ قاتم، له شـاربان. تحملق عيناه وتحدِّقان بموسـيا طويلاً وباستغراب، ثم يختفي الوجه من دون ضجيج، مثلما ظهر.

سـاعة البرج ترنّ وتغنّي طويلاً، وبعذاب. كأن هذه الساعة المتعَبة تحبو صاعدة جبلاً عالياً نحو منتصـف الليل، والصـعود يزداد صـعوبة وعسراً. ثم تسـقط

الساعة، تنزلق، تطير بأنين إلى تحت، ومرّة أخرى تعود تحبو بعذاب نحو ذروتها السوداء.

ثمّةَ من يمشون في مكان ما. هناك من يتهامسون في مكان ما. إنهم يجهّزون الخيول بعربات سوداء ليس فيها مصابيح.

٨. هناك موت، وهناك حياة

لم يفكر سيرغي غولوفين بالموت يوماً وكأنه شيء غريب عنه ولا يخصّه إطلاقا. لقد كان فتى مرحاً، متين البنية، وافر الصحة، يتمتّع بهدوءٍ وصفاءِ إقبال على الحياة يجعل كلّ ما هو رديء وضارٌّ من أفكار أو مشاعر تراوده يختفي غير مخلّف أيَّ أثر فيه. ومثلما كان يلتئم عنده كل أنواع الندوب والجروح والإبر، كذلك كان لا يلبث أن يطرح في الحال كل ما هو ثقيل يجرح الروح، فيزول. وكان يضفي على أيِّ قضية أو حتّى تسلية، سواء أكان ذلك صورة فوتوغرافية، أو درّاجة هوائية أو إعداداً لعملية إرهابية نفس القدْر من الجدية الهادئة والمتفائلة. عنده كلُّ شيء في الحياة مرِح، كل شيء في الحياة هامّ، كل شيء يجب أن يُعمَل بإتقان.

وكان يعمل كلَّ شيء بإتقان. فكان يُحسن التحكُّم بالشراع على نحوٍ رائع، ويرمي من المسدَّس بشكل بديع. وكان ثابتاً في الصداقة، كما في الحب، ويؤمن بـ «كلمة الشرف» إيمان المتعصّبين الغلاة. كان رفاقه يضحكون منه لأنه لو أن رجلاً في المباحث، أو مخبراً، أو جاسوساً مكشوفاً أقسم له بشرفه على أنه ليس رجل مباحث لصدّقه سيرغي وشدَّ على يده كرفيق. عيبه واحد هو أنه كان واثقاً من أنه يغنّي جيّداً، بينما لم يكن له أدنى نصيب من الأذن الموسيقية، وكان صوته منفِراً ونشازاً حتى في إنشاد الأغاني الثورية؛ وكان يزعل عندما يضحكون من غنائه.

- إمّا أنتم حمير كلُّكم، وإمّا أنا حمار. - كان يقول بجدية وانزعاج.

وبهذه الجدية نفسها كان الجميع يفكرون قليلاً ثم يقررون:

ـ أنت الحمار، هذا مسموع في صوتك.

–إلا أنهم كانوا يحبّونه على هذا النقص الذي يصادَف أحياناً عند الناس الطيّبين، بل وربّما أكثر من حبّهم إيّاه على خصاله الحميدة.

لم يكن يخاف الموت ولا يفكّر به. وهذا ما جعله في ذلك الصباح المشؤوم، قبل خروجه من شقة تانيا كوفالتشوك، يأتي وحده على طعام الإفطار بشهيّة، كما ينبغي، فيشرب كأسين من الشاي مخلوطين إلى النصف بالحليب، ويأكل قطعة كاملة من خبز الخمسة كوبيكات[11]. ثم ينظر بأسى إلى قطعة الخبز التي لفيرنر ويقول:

ـ وأنت، ما لك لا تأكل؟ كُلْ، يجب عليك أن نأكل.

ـ لستُ راغباً.

ـ إذا فإني سآكلها أنا. حسناً؟

ـ يا للشهية التي عندك، يا سيريوجا.

وبدلاً من الجواب ملأ سيرغي فمه، وغنّى بصوتٍ نشاز أصمّ:

يرفرفِ فوقنا شرُّ الزوابع

بعد الاعتقال كان سيريوجا على وشْك أن يصاب بالاكتئاب بسبب سوء تنفيذهم، ولأنهم أخفقوا، غير أنه قال في سرّه: «هناك الآن شيء آخر يجب أن نُحسن عمَلَه، هو الموت»، ـ فابتهج. والغريب أنه منذ صباحه الثاني في القلعة بدأ يمارس الرياضة وَفق برنامج كان مولعاً به، عقلانيّ إلى أبعد حدّ، وضعه ألماني اسمه ميوللر. فكان يخلع ثيابه، ويجعل الحارس يتعجّب متوجّساً وهو يراه يطبّق التمارين الثمانية عشرة التي ينصّ عليها البرنامج. غير أنه كان يطيب

١١– قطعة خبز (صمّون) مخروطية منفوخة تكفي عدة أشخاص. ـ م.

لــه، كداعية لبرنامج ميوللــر، أن يرى الحارس يراقبه، وربّمـا يتعجَّب من فعله. ومع أن سـيريوجا كان يعرف أنه لن يتلقّى جواباً فقد قال للعين التي تحملق في الكوّة:

ـ هذا، يا أخي، يقوّي البدن. ليتكم تطبّقون هذه التمارين في لوائكم ،ـ صرخ ناصــحاً إيّاه بإيجاز لكي لا يخيفه، و لم يكن يخطر بباله أن الجندي يَعدُّه مجرَّد مجنون.

بدأ الخوف من الموت يظهر عنده تدريجياً، وعلى شــكل دفعات، وكأن هناك من يأتي ويضربه بكل ما أوتيَت قبضــتُه من قــوّة على قلبه من تحت. والأرجح أن الضربة تكون مؤلمة أكثر مما هي مخيفة. ثم يطوي النسـيان هذا الإحســاس، ولكنه بعد بضع ساعات يعود من جديد، وكلَّ مرة يغدو هذا الإحساس أطول مدى وأكثر قوّة. وبوضوح يشرع باتَّخاذ ملامحَ عكِرةٍ هي ملامح خوف كبير لا يطاق.

«أحقّاً أنا أخاف؟ ـ فكّر سيرغي متعجباً. ـ يا لها من سخافات أيضاً!».

إن من كان خائفاً ليس هو، بل من كان خائفاً هو جســمه الفتيّ، المتين، القويّ الــذي لم يتمكــن من خداعه لا برياضــة الألماني ميوللــر، ولا بالتدليك البارد. فكلما بات الجســم أشــدَّ متانة، وأكثر طراوة بعد الماء البارد باتت الأحاسـيس بلحظــة الخــوف أكثر حدَّة وألمــاً لا يطاق. فعندمـا كان طليقــاً، كان في تلك الدقائق بالضبط ، في الصباح، بعد النوم العميق والتمارين الرياضية، يشعر بأن درجة تفاؤله وقوّته ترتفع على نحوٍ خاص، ويتبدّى له هذا الخوف الحادُّ وكأنه خوفُ شخص آخر. وقد انتبه إلى ذلك وقال في نفسه:

«يا للغباء، أيها الأخ سـيرغي. إن من يريد أن يهوِّن الموت على جســمه يكون عليه أن يعمل على إضعافه، وليس على زيادة قوّته. يا للغباء!».

وهكذا تخلّى عن ممارسة الرياضة وعن التدليك. ولتفسير ذلك وتبريره أمام الجندي صاح به قائلاً:

- لا تُلقِ بالاً إلى أنني تركت التمارين. فهذا التدريب جيّد، أيها الأخ. صحيح أنه لا يصلح لمقبل على الشنق، ولكنه جيد جداً لجميع الآخرين.

حقاً، كأن الأمر بات أهون عليه الآن. فحاول أن يقلل من أكله أيضاً من أجل بلوغ مزيد من الضعف، إلا أن شهيّته، رغم انعدام الهواء النقي والتخلي عن التمارين الرياضية، ظلّت قوية جداً ويصعب عليه التحكم بها، إذ كان يأكل كلّ ما يأتونه به. وقتها أخذ يتصرّف على النحو لتالي: فقبْل أن يبدأ بتناول الطعام كان يُلقي بنصف طبقه الساخن في السطل/المرحاض؛ وبدا له أن ذلك كان يساعده، إذ كان يداهمه بعد ذلك خَدَرٌ ونعاس ثقيل.

- سأُريك! - يقول مهدّداً جسمه، فيما هو نفسه يمرِّر يده بحزنٍ تمريرة رقيقة على عضلاته الذابلة المتهدّلة.

ولكن جسمه سرعان ما ألف هذا النظام وعاد إليه رعب الموت من جديد. ولكنه في الحقيقة لم يعد بتلك الحدّة، ولا بتلك الحرارة النارية، وإنما عاد أكثر إملالاً، شبيهاً بالغثيان. «هذا لأنهم يماطلون طويلاً، - خطر لسيرغي، - حبّذا لو أنام طول هذا الوقت، حتى لحظة الإعدام»، - وحاول أن ينام أطول مدة ممكنة. وقد نجح في البداية في ذلك، ولكنه في ما بعد أُصيب بالأرق ، ربّما لأنه شبع نوماً، وربّما لسبب آخر. ومع الأرق جاءته أفكار حادّة ونفّاذة، وكانت مصحوبة بالشوق إلى الحياة أيضاً.

«وهل أنا أخافه، ذلك الشيطان؟ - قال مفكّراً بالموت. - إنني أتأسف على الحياة. فهي شيء رائع، مهما كان ما يقوله عنها المتشائمون. وماذا لو شنقنا المتشائم؟ آه، أسفي على الحياة، شديد أسفي عليها. ولماذا لماذا نبتت لحيتي؟ لقد ظلّت مدة طويلة لا تنبت، وإذا بها تنبُت الآن فجأة. فلماذا؟».

وهزَّ رأسه بحزن، وأطلق تنهُدات مديدة ثقيلة. تنهّدات تلاها صمتٌ، ثم تنهيدة مديدة عميقة؛ ومرة أخرى خيّم صمتٌ قصير، ثم انطلقت تنهيدة جديدة أخرى أكثر امتداداً وثقلاً.

واستمر الحال على هذا المنوال حتى وقت المحاكمة، وحتى اللقاء الرهيب الأخير مع والديه العجوزين. عندما استيقظ في الزنزانة وهو يدرك بجلاء أن الحياة قد قُضيَ عليها، وأنه لم يعد أمامه إلا بضع ساعات من الانتظار في الفراغ، وإلا الموت، أحسَّ بشيء من الغرابة، وكأنه عُرّيَ تماماً، عرّيَ بطريقة غير عادية - إنهم لم يكتفوا بتجريده من ثيابه، بل وحجبوا عنه الشمس، والهواء، والضوضاء، والنور، والأفعال والكلام. لم يأتِ الموت بعد، ولكن الحياة لم تعُد موجودة أيضاً، وإنما هناك شيء جديد، مذهل في غموضه، لا هو خالٍ من المعنى تماماً، ولا هو ذو معنى. إنه عميق، وغامض، وغير بشري إلى حد يستحيل كشفه.

- تفووو، يا للشيطان! - تعجب سيرغي متألِّماً. - ما هذا؟ وأين أنا؟ أنا... أيُّ أنا؟

ألقى على نفسه نظرة متفحّصة بانتباه واهتمام، ابتداء من حذاء السجون الكبير، وانتهاء ببطنه المنتفخ تحت الثوب. وتمشّى في الزنزانة فارداً ذراعيه ومستمراً في النظر إلى نفسه مثل امرأة في فستان جديد طويل عليها. تلفّت برأسه فوجده يتحرّك. وهذا الرهيب قليلاً لسبب ما، هو - سيرغي غولوفين - وسوف يموت.

وصار غريباً عليه كل شيء.

حاول أن يتمشّى في الزنزانة فوجد غريباً أنه يمشي. وحاول أن يجلس فوجد غريباً أنه يجلس. وحاول أن يشرب ماء فوجد غريباً أنه يشرب، ويبلع، ويقبض على الكأس. وأن له أصابعَ، وهذه الأصابع ترتجف. تنحنح، وسعل، وفكّر وهو يسعل: «يا للغرابة، إنني أسعل».

«ماذا أصـــابني، هل أنا أفقد عقلي! ـ فكّر سيرغي والبرودة تسري في جسده. ـ هذا ما ينقصني، فليأخذهم الشيطان!».

حكّ جبينه بيده، ولكن هذا كان غريباً أيضـاً. وعندئذ ظل مدة، ظنّها ساعات كاملة، متجمداً بلا حراك، لا يتنفّس، طارداً كل فكرة، ممتنعاً عن رفع أنفاسـه عالياً، متحاشـياً القيـام بأي حركة، لأن أيّ فكرة كانـت جنوناً. لم يعُد الزمن موجوداً، وكأنه تحوَّل إلى مكان، الزمن الشـفاف، الخالي من الهواء، تحوَّل إلى ساحة هائلة فيها كل شيء، فيها الأرض، والحياة والناس؛ ورأى كل هذا بنظرة واحـدة، كل شـيء حتى النهاية تمامـاً، حتى الجرف المبهـم: حتى الموت. و لم يكـن العذاب متأتياً مـن رؤيته الموتَ، وإنما من رؤيتـه الحياةَ والموت في وقت واحـد. ويد التجديف هي ما أزاح السـتارة التي تحجب منـذ الأزل سرَّ الحياة وسرَّ الموت، فكفّا عن أن يكونا سرّاً، غير أنهما لم يصـبحا واضـحين أيضاً، بل كانـا كالحقيقة المكتوبة بلغـة لا يفهمها أحد. لم تكن هذه الأفكار موجودة في دماغه البشري، و لم تكن موجودة في لغته البشرية كلمات تسـتطيع أن تحيط بما رآه. وكانت كلمتا «أشـعر بالخوف» تتردّدان فيه لسـبب واحد فقط هو أنه لم يكن هناك كلمة أخـرى، لم يكن موجوداً ولا أمكن أن يكون موجوداً مفهوم مناسب للتعبير عن هذه الحالة البشرية الجديدة. هذا ما يقع لإنسان لو أنه فجأة، وهـو ما يزال بعدُ في حدود الفهم البشري والخبرة والمشـاعر البشرية، رأى الله نفسـه، رآه و لم يفهـم، وإن كان يعـرف، أن هذا يسـمّى الله، فهـزّه ما لا أذنٌ سمعت من عذابات ناتجة عن انعدام فهم لم يُسمع له من مثيل.

ـ هذا هو ميوللر! ـ نطق فجأة بصوت عال وهزّ رأسه بيقين. وبذات الانكسار الفجائي في الشعور، الانكسار الذي تُحسن النفس البشرية الإحساس به جيداً، قهقه بمرح وصـدق. ـ آه منك، يا ميوللر! آه منك، أيّها الغالي ميوللر! آه منك، يا صـديقي الألماني الرائع! ومع ذلك فأنت على حق، يا ميوللر، أمّا أنا فحمار، أيها الأخ ميوللر.

وتمشّى مسرعاً في الزنزانة جيئة وذهاباً عدة مرات، وكم كانت عظيمة الدهشة الجديدة التي أصابت الجندي الذي كان يراقبه من عين الباب حين رآه يتعرّى من ثيابه كلّها، ثم بمرح وبأقصى قدْر من العناية يقوم بالتمارين الثمانية عشرة كلّها. فقد راح يثني جسمه الفتيَّ الذي نحل قليلاً، ويستقيم صعوداً وهبوطاً، مسموعَ الشهيق والزفير، ويهبط على رؤوس أصابع قدميه، ويقفز مباعداً ما بين يديه ورجليه. وبعد كل تمرين كان يقول بسرور:

ـ تلك هي القصة! هذا حقيقي، أيها الأخ ميوللر!

وتضرّج خدّاه بحمرة عميقة، وانبعثت من مسام جسمه قطرات عرق ساخن، زكيِّ الرائحة، ودقَّ قلبه دقّاتٍ قويّةً ورتيبة.

ـ المشكلة، يا ميوللر، ـ فكّر سيرغي وهو يُبرز صدره إلى الأمام بطريقة جعلت أضلاعه ترتسم بوضوح تحت جلده الرقيق المشدود، ـ المشكلة يا ميوللر هي أنه ما يزال هناك تمرين هو التاسع عشر: تمرين التعلّق من الرقبة في وضعية الثبات. وهذا ما يسمّى الإعدام. هل تفهم، يا ميوللر؟ يأخذون إنساناً حيّاً، وليكن سيرغي غولوفين، فيُلبسونه مثل دمية ثم يعلّقونه إلى أن يموت. هذا غباءٌ، يا ميوللر، ولكنْ لا حول لنا ولا قوّة، إذ لا بدّ من فعلِ ذلك أحياناً.

ومال بجسمه إلى الجهة اليمنى وكرر:

ـ لا بدَّ من ذلك أحياناً، أيّها الأخ ميوللر.

٩. عزلة فظيعة

تحت رنين الساعة نفسه أمضى التعيس فاسيلي كاشيرِن الأيام الأخيرة من حياته في رعب وحزن، تفصله عن سيرغي وموسيا عدة زنزانات فارغة، ولكنه كان وحيداً وحدة قاسية، وكأنما لم يكن موجوداً في الكون كله أحدٌ غيره.

كان يتمشّى في زنزانته جيئة وذهاباً وهو يتصبّب عرقاً، بقميصه الرطب الملتصق بجسمه، وبشعره السابل الذي كان أجعد في ما مضى، مِشيةَ تشنج ويأس مثل من يعاني من ألم في أضراسه لا يطاق. كان يجلس، ثم يركض من جديد، يضغط بجبينه على الجدار، يتوقّف ويبحث بعينيه عن شيء ما، كأنه يبحث عن دواء. لقد تغيَّر حتى صار كمن كان له وجهان مختلفان: وجهٌ قديم، فتيٌّ، ما من أحد يعرف إلى أين رحل، ووجهٌ جديد، مخيف، حلّ محلّه، جاء من الظلام.

لقد جاءه رعبُ الموت فوراً واستولى عليه استيلاء كلّيّاً ومطبقاً. ففي الصباح كان يتبسّط مع الموت وهو ذاهب إليه جَهاراً، وما إن اقترب المساء، وهو محبوس في زنزانته الانفرادية، حتى طوقته وعصفت به موجة خوف مسعور. عندما كان ذاهباً إلى الخطر والموت من تلقاء نفسه، بمحض إرادته، عندما كان قابضاً بيديه على موته، وإن كان موتاً مخيفاً في مظهره، كانت الأمور هيّنة عليه، بل وكان مبتهجاً، إذ إن شعوره بحرية ليس لها ضفاف، وبإثباته الجريء والأكيد لإرادته الجسورة التي لا تعرف الخوف، كان يحجب عنه تماماً خوفاً صغيراً، مجعّداً كأنه خوفُ عجائز. ولمّا كان مزنّراً بالآلة الجهنمية كان هو نفسه كمن تحوّل إلى آلة جهنمية وشغّل في نفسه عقل الديناميت القاسي، وأضفى على نفسه قوّة نارية مميتة. وحين كان ماشياً في الشارع بين الناس المسرعين، العاديين،

المنشــغلين بهمومهم اليومية، المتعجّلين بتفادي خيــول العربات وحافلة الترام كان يبدو في نظر نفسه قادماً من عالم آخرَ مجهولٍ، لا يعرف سكّانُه الموت ولا الخوف.

وفجأة في لحظة باغتَه تحوُّلٌ حادٌّ، عاصــف، مدوِّخ. إنه لم يعد يســير إلى حيث هو يريد، بل هو يُنقَل إلى حيث يراد له. وهو لم يختَرِ إلى أين، بل هو موضــوعٌ في قفصــ حجــري وأقفِلَ عليه الباب بالمفتاح كأنه شــيء. إنه لم يعد يســتطيع الاختيار بحرّيّة بين الموت والحياة، شــأنه شــأن جميع النــاس، بل باتت حياته تسـلَب منه حتماً وبالتأكيد. إن من كان تجســيداً للإرادة والحياة والقوّة أصبح في رفّــة جفنٍ صــورةً تافهة للعجــز الوحيد في العالم، تحــوَّل إلى حيوان ينتظر الذبح، إلى شــيء أصــمَّ عديم الصــوت يمكن نقله من مكانه وإحراقه وكسره. وأيّاً كان ما يقوله فإنه لن يســمَع كلامه أحد، وإذا ما بدأ يصرخ ســدّوا بخرقةٍ فمَه، وســواءٌ أسارَ هو بنفســه على رجليه أم لا، فإنهم سيمضون به إلى الإعدام ويشــنقونه. وســواءٌ أقاوم، أو حاول التملّص، أو اســتلقى على الأرض فإنهم ســيتمكّنون منه، ويرفعونه، ويقيّدونه، ويمضــون به إلى المشنقة مقيَّداً. وما دام الناس الذين ســوف ينفّذون هذا العمل الآلي بحقِّه ليســوا إلا بشراً مثلُهم مثلُه، فإن ذلك يضــفي عليهم مظهراً جديداً، شرّيراً، غير عادي، يراوح ما بين مظهر أشــباح، شيءٍ متصنَّع، لم يكن يظهر إلا قصــداً، ومظهر دُمىً ميكانيكية تعمل بنابضــ: فهي تأخذ، تلقي القبض، تقود، تشــنِق، تشــدّ من الأرجل: ثم تقطع الحبل، تمدِّد، تنقل، تقبر.

منذ يومه الأول في الســجن تحوّل الناس والحياة في نظره إلى عالم من الأشــباح والدُمى الميكانيكية مرعب رعباً لا يوصــف. لقد حاول، بعد أنْ كاد يُجنُّ من الرعب، أن يتصــوّر أن للناس لساناً وأنهم يتكلّمون و لم يستطِع، فظنَّهم بُكماً. وحاول أن يتذكّر كلامهم، ومعنى الكلمات التي يســتعملونها في ما بينهم و لم

يستطع. إن أفواههم تنفتح، يصدر منها صوتٌ ما، ثم يتفرّقون وهم ينقِلون أقدامهم، ثم لا شيء.

هكذا يشعر من لو كان وحدَه في البيت ليلاً وفوجئ بالأشياء كلها تنبض بالحياة وتتحرّك، ويغدو لها عليه، هو الإنسان، سلطة بلا حدود. ثم فجأة تروح تلك الأشياء تحاكمه: الخِزانة، والكرسيّ، وطاولة الكتابة، والأريكة. إنه سيصرخ، وينتفض، ويتضرّع، ويستغيث، فيما تتبادل الأشياء الكلام في ما بينها بلغتها. وبعد ذلك تقوده الخِزانة، والكرسيّ، وطاولة الكتابة، والأريكة إلى المشنقة. فيما تكون الأشياء الأخرى تشاهد ما يدور.

غير أن كل شيء راح يبدو ألعاباً في نظر فاسيلي كاشيرِن المحكوم بالإعدام شنقاً: زنزانته، والباب وفُتحة المراقبة فيه، ورنين الساعة الميكانيكية، والقلعة المطليّة بإتقان، ولا سيّما تلك الدمية الميكانيكية مع سلاحها وهي تدقّ بقدميها أرض الممر، وتلك الدمى الأخرى التي تخيفه وهي تتلصّص عليه بنظراتها عبر الكوّة، وتقدّم له الطعام بصمت. على أن ما كان قد عاناه لم يكن خوفاً أمام الموت؛ بل الأرجح هو أن كاشيرِن كان راغباً بالموت الذي كان، بكل ما فيه من لغز وغموض أبديين، أيسرَ فهماً على العقل من هذا العالم الذي انقلب بهذا القدْر من الهمجية والفانتازيا. وأكثر من ذلك: كأن الموت كان يتحطّم تماماً في هذا العالم المجنون من الأشباح والدمى، وكان يفقد معناه العظيم والغامض، ويغدو أيضاً شيئاً ميكانيكياً، ولهذا السبب وحده يغدو مخيفاً. دُمى تأخذ، تُلقي القبض، تقود، تشنق، تشدُّ من الأرجل. تقطع الحبل، تُمدِّد، تنقل، تقبر.

لقد اختفى الإنسان من العالم.

في المحكمة أعاد قربُ الرفاق كاشيرِن إلى رشده. ومن جديد، للحظة، رأى الناسَ وهم جالسون يحاكمونه ويتكلّمون فيما بينهم بلغة بشرية، ينصتون وكأنهم يفهمون. أمّا في وقت المقابلة مع أمِّه، عندما كان مرعوباً مثل مَن بدأ

يفقد عقله وهو يفهم ذلك، فإنه أحسَّ بجلاء أن هذه المرأة بمنديلها الأسـوَد ما هي إلا دمية ميكانيكية مصـنوعة، من قبيل الدمـى التي تقول: «با ـ با»، «ما ـ ما»، ولكنها أحسَـنُ صـنعاً. لقد حاول أن يتكلّم معهـا، فيما كان يفكِّر وهو يرتعد:

«يـا إلهي! إن هذه دمية. دمية الأم. وتلك دميةِ الجندي، وهناك في البيت دمية الأب، أمّا هذه فإنها دمية فاسيلي كاشيرِن».

ـ خُيِّل له أنه ما هي إلا ثوانٍ حتى يَسـمع في مكان ما تصـدُّع الآلة، وصريف العجلات غير المشـحّمة. وللحظة، عندما بكت أُمُّه، وَمَضَ أمامه شيء إنساني مـا، ولكنه ما لبث أن اختفى مـع أوَّل كلمات قالتها، وبات مخيفاً ويبعث على الفضول أن يشاهد أن ماءً راح ينهمر من عينَي هذه الدمية.

ثم حاول فاسـيلي كاشيرِن في زنزانته أن يصلّي، عندما صار الخوف لا يطاق. غير أنه لم يكن باقياً في ذاكرته، من كل ما كانت حياة صباه في بيت أبيه التاجر محاطةً به تحت سـتار الدين، إلا أثر واحدٌ كريه، مُرٌّ ومثير للأعصـاب، و لم يكن عنده إيمان. ولكنه في وقت مضى، ربما في طفولته الباكرة، سمع ثلاث كلمات أصـابته بقلق مخيف، ثم ظلت مدى الحياة مطعَّمة بشِعرٍ هادئ. هذه الكلمات هي: «بهجة الحَزانى أجمعين»[١٢].

وكان في بعض الأحيان، في الدقائق الصـعبة، يتمتـم في سريرته، ودون وعيٍ محـدَّد: «بهجـة الحَزانى أجمعين»، فـلا يلبث أن تهون عليـه الأمور، ويرغب بالذهاب إلى أحد العزيزين عليه ليشكو له بهدوء:

ـ حياتنا... وهل هذه حياة! آهٍ، أيّتها الغالية، وهل هذه حياة!

١٢ـ اسم أيقونة للسيدة العذراء في إحدى كنائس موسكو، يقدّسها الأرثوذكس الروس، ويعود تاريخها إلى عام ١٦٨٨م.

- وقد يغدو الأمر مضحكاً فيرغب في أن يجعِّد شعره، أن يأتيَ بفعل غريب، أو أن يقدِّم صدره لأحد كي يضربه: هيّا، اضربْ!

لم يبُحْ لأحد، حتى لأقرب أصدقائه، بعبارة «بهجة الحَزانى أجمعين»، بل وكأنه هو نفسه لم يكن يعرف بها، فقد كانت دفينة في مكان عميق من روحه. ولم تكن تخطر على باله إلا في أوقات قليلة، وبحذر.

والآن، عندما غمره حتى رأسه رعبُ السر الماثل أمام عينيه والعصيّ على الحل، مثلما يغمر الفيضان شجيرة على شاطئ النهر، أراد أن يصلّي. أراد أن يركع على ركبتيه، ولكنه أحسّ بالعار أمام الجندي، ولكنه عقد يديه على صدره، وهمس بهدوء:

- بهجة الحَزانى أجمعين!

وكرر بحزن وهو ينطق الكلمات بعذوبة:

- تعالي إليَّ، يا بهجة الحَزانى أجمعين، وكوني عوناً لفاسكا كاشيرِن.

منذ زمن بعيد، منذ كان في سنته الجامعية الأولى، يوم كان ما يزال يتعاطى الخمر، قبل أن يتعرّف إلى فيرنر وينضمّ إلى مجموعته، كان يسمّي نفسه بتبجّح وسخف «فاسكا كاشيرِن». ولسبب ما فقد طاب له الآن أن يعود فيسمّي نفسه بذلك الاسم أيضاً. إلا أن وقع كلماته: «بهجة الحَزانى أجمعين!»، كان ميتاً، عديم الصدى.

تماوج شيء ما. كأن صورة هادئة وكئيبة لأحدهم مرت على مسافة قريبة منه وانطفأت بهدوء قبل أن تنير ظلمة ما قبل الموت. ورنّت الساعة الميكانيكية على برج الأجراس. وقرقع جندي بسيفه أو ببندقيته في الممر، وأطلق تثاؤباً مديداً متموِّجاً.

- يا بهجة الحَزانى أجمعين ! وأنت أيضاً ما تزالين صامتة ! ولا تريدين أن تقولي لفاسيا كاشيرِن أيَّ شيئ ؟

وابتسم بعذوبة وانتظر. ولكن الفراغ كان مخيّماً في نفسه وحواليه. ولم ترجع الصورة الهادئة والحزينة. وتذكّر شموعاً تشتعل من غير ما حاجة وبعذاب، وخوريّاً في جبّته، وأيقونة مرسومة على الجدار، وكيف ينحني أبوه ويستقيم وهو يصلّي ويسلّم فيما هو ينظر من تحت حاجبيه إن كان فاسكا يصلّي أم لا، وهل انهمك باللعب. فأحسَّ برعبٍ أكثرَ ممّا قبل الصلاة.

واختفى كل شيء.

وهجم عليه الجنون يزحف ثقيلاً. وخمد وعيه مثلما تخمد نار مبعثرة. وبرد مثل جثّة إنسان مات للتوّ وما زال في قلبه دفء، بينما تجمّدت رجلاه ويداه من البرد. ومرّة أخرى شعّت فكرة دامية وهي آخذ بالأفول وقالت إنه، فاسكا كاشيرن، قد يصاب هنا بالجنون، وقد يتعذّب عذاباً ليس له اسم، ويبلغ حدّاً من الألم والمكابدات لم يصل إليه بعدُ أيُّ كائن حيّ؛ وأنه قد يضرب الجدار برأسه، وقد يقلع عينيه بإصبعه، وقد يتكلم ويصرخ بكل ما يطيب له، ويذرف الدموع مؤكِداً أنه لم يعُد يطيق صبراً، ثم لا شيء. سيحلّ اللاشيء.

وجاء اللاشيء. واستمرّت الرِّجْلان اللتان لهما وعيهما وحياتهما تمشيان وتحملان جسمه البليل المرتجف. وعبثاً حاولت يداه اللتان لهما وعيهما ضمّ الثوب الذي انفتح على صدره وتدفئةَ جسمه البليل الذي يرتجف. فقد كان جسمه يرتجف ويتجمّد من البرد. وكانت عيناه تنظران. وكانت تلك رقدةَ الموت تقريباً.

ولكنْ كان هناك لحظةُ رعب وحشي أخرى. حدث ذلك عندما دخل الناس. حتى إنه لم يفكر ما معنى ذلك، وهل حان وقت الذهاب إلى الإعدام، أم أنه شاهد أناساً وخاف كالأطفال تقريباً، لا غير.

ـ لن أذهب! لن أذهب! ـ همس همساً مسموعاً بشفتين دبَّ فيهما الموت، وتراجع بهدوء إلى آخر الزنزانة مثلما كان يفعل في طفولته عندما كان الوالد يرفع يده عليه.

ـ حان الذهاب.

إنهم يتكلمون، يمشون حوله، يناولونه شيئاً. أغمض عينيه، ترنّح، وشرع بصعوبة يستعدّ. يبدو أن وعيه بدأ يعود إليه، إذ إنه فجأةً طلب من الموظّف لُفافة تبغ. وبلطف فتح له الموظّف علبة التبغ الفضية وعليها رسمٌ حداثي.

١٠. الجدران تنهار

كان المجهول الملقّب باسـم فيرنر إنساناً متعَباً من الحياة ومن النضال. لقد كان في زمن مضى يحب الحياة بقوة، يتمتع بالمسرح، والأدب، ومعاشرة الناس. إنه موهوبٌ ذاكرةً رائعة وإرادة صـلبة. كان يتقـن إتقانا كلياً عدة لغات أوروبية، ويسـتطيع أن يقدّم نفسـه بطلاقة على أنه ألماني، أو فرنسي، أو إنكليزي. وقد كان يتكلّـم الألمانية عـادة بلُكنة بافارية، ولكنه كان قادراً، إذا شـاء، أن يتكلّم مثل برليني حقيقي، أصـيل. كان يحب التأنق في لباسه، ويجيد أساليب بديعة في اللباقـة، وهو بين رفاقه الوحيد الذي كان يتجـرّأ على الظهور في حفلات الرقص، التي يقيمها المجتمع الراقي، غير خائف من أن يُعرَف.

ولكنّه كان يكنّ للناس احتقاراً غامضـاً يختمر في نفسـه منذ مدّة طويلة، ومن غـير أن يلحظَه رفاقُـه. وكان وراء ذلك يأس، وتعب ثقيـل، مميت تقريباً. لقد كان بطبيعته رياضـيّاً[١٣] أكثر ممّا هو شـاعر، وحتـى ذلك الحين لم يكن يعرف الإلهام والنشوة، وكان في بعض الدقائق يُحسّ بأنه مثل مجنون يبحث عن تربيع الدائرة في برك من دم البشر. و لم يكن العدو الذي كان يصـارعه كل يوم قادراً على أن يفرض عليه احترامه. وكان ذلك شـبكة متكـررة من الغباء، والخيانة، والكذب، والبصـقات القذرة والخداع المقزِز. وآخرُ ما ظنَّ أنه قضـى بسـببه قضـاء مبرماً على رغبته بالحياة هو عملية قتلِ مخبر قام بها بتكليف من منظمته. لقـد قتله بهدوء، ولكنه عندما رأى ذلك الوجه البشري الميت، الزائفْ، الوجه الـذي بات الآن هادئاً، ولكنه مع ذلك يبعث على الشـفقة أيضـاً، كفَّ فجأة عن احترام نفسه وقضيته. على أن ذلك لا يعني أنه أحسَّ بالندم، وإنما يعني أنه

١٣– ذو عقل تحليلي، عقل عالِم في مجال الرياضيات. - م

بكلِّ بساطة كفَّ فجأة عن تقدير نفسه، وبات في نظر نفسه مملاً، قليل الشأن، وحيداً وحزيناً. ولكنه لمّا كان إنسـاناً يتمتع بإرادة صلبة، متماسكة، لم يخرج من صفوف منظمته، وظلَّ ظاهريّاً كما كان، مع فارق واحد هو أن شيئاً بارداً وفظيعاً استقرّ في عينيه. و لم يبح لأحد بأيِّ شيء.

وكان يتمتّع أيضـاً بصـفة نادرة أخرى. فكما أن هناك أناساً لم يعرفوا الصُّداع يومـاً، كذلك هـو لم يعرف ما هو الخوف. وعندمـا كان الآخرون يخافون لم يكـن يقف منهم موقف الاسـتنكار، ولكنه أيضـاً لم يكن يشـفق عليهم ذلك الإشـفاق، مثلما يقف المرء من مرض واسع الانتشار ولكنه لم يُصَب به في يوم من الأيام. لقد كان يشـفق على رفاقه، وخاصـة على فاسـيا كاشـيرن، غير أن ذلك كان تلك الشـفقة الباردة، الرسـمية تقريباً، التـي ربّما لم تكن غريبة حتى على بعض القضاة.

كان فيرنـر يـدرك أن الإعدام ليس مجـرّد موت، بل هو شـيء آخر، ولكنه في جميع الأحوال قرر أن يستقبله بهدوء، كشيء لا صلة له به، قرر أن يعيش حتى النهاية وكأن شـيئاً لم يحدث، ولن يحدث. بهذه الطريقة فقط كان قادراً على أن يعـبّر عن احتقاره للإعـدام، وأن يحافظ على الحريـة الأخيرة التي لا يمكن تجريدُ روحه منها. وفي المحكمة، ولعلّ هذا ما كان يصـعب أن يصـدّقه حتى رفاقه الذين يعرفون جرأته الباردة وتعاليه، لم يكن يفكّر لا بالموت ولا بالحياة، لقد كان يلعب بتركيز وباهتمام شـديد العمق والهدوء شوطاً صعباً بالشطرنج. فقـد بدأ هذا اللاعب المتفوّق في الشـطرنج يلعب منـذ أوّل يوم من أيام اعتقاله هذا الشـوط، واسـتمر يلعبه من غـير توقف. و لم يحرّك قرارُ الحكم القاضـي بإعدامه شنقاً حتى الموت أيَّ بيدقٍ على رقعة الشطرنج التي في خياله.

بل و لم يتوقفْ عن لعب الشـوط الذي كان يبدو أنه لن يقدَّر له أن يُكملَه. وفي صـباح اليوم الأخـير الذي بقي له على الأرض بدأ بتعديـل نقلة لعبها بالأمس و لم تكن ناجحة تمام النجاح. وشدّ على يديه المسبلتين بين ركبتيه وجلس دون

حراك؛ ثم قام وبدأ يتمشّى وهو يفكر. كانت مشيته من نوع خاص ينحني فيها بالجزء الأعلى من جذعه إلى الأمام قليلاً، وبعزم ووضوح يدقّ الأرض بكعبيه، فتخلّف خطواته حتى على الأرض الصلبة أثراً عميقاً وملحوظاً. وبهدوء وعلى نَفَسٍ واحد كان يصفِر لحناً إيطالياً بسيطاً، فقد كان ذلك يساعده على التفكير.

غير أن سير الأمور هذه المرة كان، لسبب ما، سيّئاً. فقد خالجه شعور كريه بأنه ارتكب غلطة كبيرة، بل وفادحة، فعاد بأفكاره إلى الوراء عدّة مرّات كي يتحقق من لعبه منذ البداية تقريباً. ورغم انه لم يكن يجد غلطة، فإن الشعور بارتكاب غلطة لم يفارقْه، بل وبات يزداد قوّة وحزناً. وفجأة خطرت له فكرة مزعجة وغير متوقَّعة: تُرى، ألا تكمن غلطته في أنه يريد بلعب الشطرنج أن ينأى بذهنه عن الإعدام ويحمي نفسه من خوف الموت الذي يبدو وكأنه لا مناص منه لمحكوم؟

ـ كلا، ولماذا؟ ـ أجاب نفسه ببرود، ثم بهدوء أغلق رقعة الشطرنج التي في الخيال. وبذلك الانتباه المركّز نفسه الذي لازمه في أثناء اللعب، وكأنه يجيب على أسئلة في امتحان عسير، حاول جاهداً أن يتبيّن ما في حالته من رعب وقنوط. فألقى نظرة فاحصة على الزنزانة محاولاً ألا يفوته فيها شيء، وحسَب الساعات الباقيةَ بينه وبين الإعدام، ورسم في ذهنه صورة تقريبية للإعدام نفسِه في غاية الدقة، وهزَّ كتفيه.

ـ وماذا؟ ـ ردَّ على شخص افتراضيّ بنصف سؤال. ـ ذلك كل شيء. فأين الخوف؟

حقاً، لم يكن هناك خوف. بل وفضلاً عن أنه لم يكن هناك خوف، كان ينمو في داخله شيء كأنه النقيض للخوف، شعور بفرح غامض، ولكنه هائل وجريء. والغلطة التي كانت ما تزال غير مكشوفة بعد، لم تعُد تبعث فيه الأسى، ولا تثير أعصابه، بل وكانت تتكلم بصوتٍ عالٍ عن شيء جيّد وغير متوقَّع، وكأنه كان

يظنّ أن صـــديقاً قريباً، غالياً عليه كان في عِداد الموتى، ثم تبيَّن له فجأة أن هذا الصديق حيٌّ، يضحك، و لم يمسّه سوء.

هزَّ فيرنر كتفَيه مرّة أخرى وتحسَّـس نبْضــه، فوجد قلبه يـدقّ بسرعة، ولكنها دقـات ثابتـة ومنتظمــة، تتميَّز بقوّة رنّانة مـن نوع خاص. ومـرّة أخرى ركّز انتباهه، مثلَ غِرّ يدخل السـجن أوّل مرة، وألقى نظرة متفحِّصة على الجدران، والأقفال، والطّاولة المثبَّتة بالأرض وفكّر:

«ما الذي يجعلني أشـعر بكل هذه الخفّة والفرح والحرية؟ بالحرية تحديداً. إنني أفكّـر بالإعدام غداً، فإذا بـه وكأنه غير موجود. أنظـرُ إلى الجدران، فكأنّما لا وجود للجدران أيضاً. ثم يا لهذا القدْر من الحرية وكأني لست في السجن، بل كأنني قد خرجت للتوّ من سجنٍ أمضيت فيه حياتي كلها. فما هذا؟».

شرعت يداه ترتعشـان، وهذه ظاهرة لم يعرفها فيرنر من قبل. وكان فكرُه يغلي بمزيد من الغضــب، وكأن ألسـنة نيران كانت تلتهب في رأســه، والنار تريد أن تنبثق خارجة من رأسـه تضيء الأفق الواسـع الذي ما يزال في الليل، وما يزال غارقاً في الظلام. وإذا بالنار تنبثق خارجة فيتألّق الأفق بالضوء على مداه.

لقد زال التعب العكِر الذي أرهق فيرنر خلال السنتين الأخيرتين، وسقطت عن قلبـه أفعى ميتة، باردة، ثقيلة، ذاتُ عينين مغمضـتين وفم مطبَقٍ إطباقة الموت، وعاد الصـبا الرائع يلهو أمـام وجه الموت. وكان ذلك أكثر من الصـبا الرائع. بذلك الصــفاء الروحي البديع، الصــفاء الـذي يلهم الإنســان في دقائق نادرة ويرتقـي به إلى أعلى ذرى التأمّل شـاهد فيرنر كلاً من الحيـاة والموت، فأذهلته روعة هذا المنظر الذي لم ترَه عينٌ من قبل. كأنه كان يمشـي على سلسـلة جبلية سـامقة الارتفاع، ضـيقة، مثل نصـل سكين، وشـاهدَ على واحد من جانبيها الحياة، وعلـى الجانب الآخر الموت، مثل بحرين أزرقين، مشعشـعين، رائعين يتّحدان عند الأفق ويتدفّقان فضاء رحيباً ما له من حدود.

ـ ما هذا! يا له من منظر إلهي! ـ قال ببطء، وهو ينهض رغماً عنه، وتنتصب قامته كما في حضرة كائنٍ سام. وفيما هو يحطّم الجدران والمكان والزمان باندفاع نظرة تخترق كلّ شيءٍ، ألقى نظرة رحيبة على مكان ما في أعماق الحياة التي يرحل عنها.

وتبدّت له الحياة جديدة. فلم يحاول، كما كان يفعل من قبلُ، أن يعبّر بالكلمات عمّا رآه، و لم تكن تلك الكلمات موجودة في لغة البشر التي ما تزال فقيرة، وما تزال شحيحة. أمّا ذلك الشيء الصغير، القذر، الشرير الذي كان يوقظ فيه الاحتقار للناس، وكان في بعض الأحيان يبعث فيه حتى التقزز من منظر الوجه البشري، فقد اختفى تماماً، مثلما يختفي عن عينِ من يرتفع في منطاد هوائي كلُّ ما في الشوارع الضيقة بمدينة مهجورة من نفايات ووسخ، فيغدو قبحها جمالاً.

وبحركة لاواعية مشى فيرنر نحو الطاولة واستند إليها بيده اليمنى. واتخذ وضعية متكبّرة، حرّة ومتسلّطة لم يتّخذ، وهو المتكبّر، المتسلّط بطبيعته، مثلها من قبل قطُّ، و لم يلتفت بهذه الطريقة، و لم ينظر بهذه الطريقة، لأنه لم يكن في يوم من الأيام حتى هذا الوقت حراً ومتسلّطاً كما هو الآن هنا، في السجن، على مسافة بضع ساعات عن الإعدام والموت.

—وتبدّى له الناس جديدين، وبَدوا لنظرته الصافية لطيفين وبديعين. ورأى بوضوح وهو يحلّق فوق الزمن كم فتيّةٌ هي البشرية التي كانت ما تزال حتى الأمس وحشاً يزأر في الغابات، وما كان يبدو في الناس رهيباً، لا يُغتفر، وخبيثاً، فجأة صار لطيفاً لطفَ كون الطفل لا يُحسن المشي كالكبير، لطفَ تلعثمه بكلمات مفكّكة تشعّ منها شرارات العبقرية، ولطفَ تعثّراته المضحكة، وأخطائه وارتطاماته القاسية.

ـ يا أحبائي! ـ ابتسم فيرنر ابتسامة غير متوقّعة وفقدَ في الحال كل ما توحي

به وقفته، وعاد فصار معتقلاً يشعر بالضيق والانزعاج في سجنه، وبشيء من الضجر من العين التي كانت تراقبه جيئة وذهاباً عند الباب. والشيء الغريب هو أنه نسيَ على نحو فجائي تقريباً ما سبق أن رآه قبل قليل وكان شديد البروز والوضوح؛ والأكثر غرابة بعدُ هو أنه لم يحاول ولو مجرّد محاولة أن يتذكّر ذلك. فقد اكتفى بالجلوس بطريقة أكثر راحة، متحرراً من التصلّب المعهود في وضعية جسمه، وببسمة ضعيفة ورقيقة ليست مألوفة منه ألقى فيرنر نظرة على الجدران والقضبان. وحدث شيء جديد أيضاً، شيء لم يحدث لفيرنر من قبل قَطُّ: لقد أجهش بالبكاء فجأة.

ـ يا لَرفاقي الغالين! ـ همس فيرنر ونشج بصوتٍ عال. ـ يا لَرفاقي الغالين!

ما هي الطرق السرّيّة التي سلكها للانتقال من الشعور بحرّيّة متكبّرة لا حدود لها إلى هذا العطف الحنون المشبوب؟ لم يكن يعرف ولا يفكر بذلك. وهل كان ينتظرهم، أولئك الرفاق الغالين، أم أن دموعه كنت تُخفي شيئاً آخر أكثر سموّاً وشبوباً؟ هذا أيضاً ما لم يكن يعرفه قلبه الذي انتعش فجأة واخضرّ. كان يبكي ويهمس:

ـ يا لَرفاقي الغالين! أيها الغالون، يا رفاقي!

ما كان لأحد قَطُّ أن يعرف أن هذا الإنسان الذي يبكي بمرارة ويضحك عبر الدموع هو فيرنر البارد والمتغطرس، المرهَق والجَسور: لا القضاة، ولا الرفاق، ولا هو نفسه.

١١. في الطريق إلى الإعدام

قبـل توزيع المحكومين على عربـات الخيل جمعوهم الخمسـةَ في غرفة كبيرة باردة مثل الجليد، سقفها بيضوي، شبيهة بمكتب مهجور لم يعد يعمل فيه أحد، أو بغرفة استقبال فارغة. وسمحوا لهم بتبادل الحديث فيما بينهم.

ولكن تانيا كوفالتشـوك وحدها من سـارعت فانتهزت في الحال هذه الفرصة للكلام. بينما تبادل الآخرون السـلام بصـمتٍ وقوّة، بأيـدٍ باردة مثل الجليد، وحارّة مثل النار. وبصمتٍ، وهم يحاولون ألاّ ينظر بعضهم إلى بعض، تجمّعوا مجموعة مرتبكة شاردة. كانوا الآن، وقد أصبحوا معاً، كأنهم خجلون مما عاناه كل واحـد منهم في عزلته؛ وكانوا يخشـون تبادل النظـرات لكي لا يَروا ولا يُظهِروا ذلك الشيء الجديد، المختلف، المعيب قليلاً، الشيء الذي كان يشعر به كلٌّ منهم، أو يعتقد أنه قد يكون موجوداً فيه.

وما هي إلا التفاتة وأخرى حتى تبادلوا النظرات وابتسموا، فشعروا بالانفراج في الحـال، وبانعدام الكلفة فيمـا بينهم، إذ عادوا إلى حالهم الأولى، لم يحدث فيهم أيّ تغيير. وإذا ما كان قد حدث شيء فإنهم يتقاسمونه جميعاً بالتساوي، ولم يعُـد يلحظه كل منهم بمفـرده. كان الجميع يتكلّمـون ويتحرّكون بطريقة غريبة مندفعين، متزاحمين إمّا ببطء شـديد، وإمّا بسرعةٍ فائقة، يغصّـون أحياناً بالكلمات ويكرّرونها مراراً، وأحياناً لا يكملون جملة شَرعوا بنطقها أو يَعدّون أنهـا قيلت، ولا يلحظون ذلك. وكانوا جميعاً يكوِّرون عيونهم ويتفحّصـون الأشـياء العادية بفضول فلا يعرفونها، مثل أناس كانوا يرتدون نظارات وفجأة خلعوهـا. وكثيراً ما كانوا كلّهـم يلتفتون إلى الـوراء وكأن هناك طول الوقت مـن يناديهم من خلف ظهورهم ويعرض عليهم شـيئاً مـا. ولكنهم لم يكونوا

يلحظون ذلـك. كانت عيون موسـيا وتانيا كوفالتشـوك وخدودهما تتكلم؛ وكان سـيرغي في البداية شـاحباً قليلاً، ولكنه سرعان ما تغلّب على ذلك وعاد مثلما كان دائماً.

و لم يلتفتوا إلا إلى فاسيلي. فقد كان حتّى بينهم متميّزاً ومخيفاً. تحرَّك فيرنر وقال لموسيا بهدوء وقلق رقيق:

ـ ما هذا يا موستِشْكا؟ أحقّاً أنه مختلّ، آ؟ ما رأيك؟ يجب أن نذهب إليه.

نظر فاسيلي إلى فيرنر من بعيد كأنه لم يعرفه وخفض ناظريه.

ـ فاسـيا، ما لشَعرك هكذا، آ؟ ماذا تفعل؟ لا بأس، أيها الأخ، لا بأس، لا بأس، الآن سينتهي كل شيء. يجب أن نصمد، حتماً، حتماً.

ظلّ فاسـيلي صامتاً. ولمّا بات واضحاً أنه لن يقول أي شيء، صدر عنه جوابٌ أصمّ، متأخِر، بعيد جداً، مثل الجواب الذي تستطيع القبور أن تردّ به على كثير من النداءات:

ـ أنا لا بأس. إنني صامد.

وكرّر:

ـ إنني صامد.

ففرح فيرنر.

ـ نعم، نعم. أحسنت. هكذا، هكذا.

ولكنه شاهد أمامه نظرةً باحثة، غامضة، مثقلة، قادمة من أعمق الآفاق، وخطر له بحزنٍ عابر: «من أين هو ينظر؟ من أين يتكلّم؟». وبلطفٍ عميق لا يكلِّمون به إلا القبور، قال:

ـ فاسيا، هل تسمعني؟ إنني أحبُّك جداً.

ـ وأنا أحبُّك جداً، ـ أجاب وهو يحرّك لسانه بصعوبة.

وفجأة أخذت موسيا يد فيرنر، وتعبيراً عن دهشتها قالت بتشديد مثل ممثلة على الخشبة:

ـ فيرنر، ماذا أصابك؟ أأنتَ قلت: أحبّك؟ إنك لم تقل يوماً لأحد: أحبُّك. ولماذا أنت كلُّك ... مشرق وليّن؟ آ، ماذا؟

ـ آ، ماذا؟

وأيضاً مثل ممثل، وبتشديد كذلك، وتعبيراً عمّا كان يجيش في نفسه شدَّ فيرنر على يد موسيا قائلاً:

ـ أجل، إنني الآن مفعَمٌ بالحب. لا تقولي للآخرين، لا لزوم لذلك، إنني أشعر بالخجل، ولكنني مفعَمٌ بالحب.

التقت نظراتهما فتوهّجا بقوّة، وانطفأ كل شيء حولهما، مثلما تنطفئ في لحظة انبثاق البرق الأضواءُ الأخرى جميعها، ويُلقي اللهبُ الأصفر، الثقيل نفسُه بظلّه على الأرض.

ـ نعم، ـ قالت موسيا. ـ نعم، يا فيرنر.

ـ نعم، ـ أجاب فيرنر.ـ نعم، يا موسيا، نعم.

ثمة شيء فهِماه وأكّداه تأكيداً لا يتزعزع. وتحرك فيرنر منوّراً بنظراته، ومشى مرة أخرى بخطوات سريعة نحو سيرغي.

ـ سيريوجا!

ولكن تانيا كوفالتشوك هي من أجابت. فبذهول، وهي على وشْك البكاء من فرط إباء الأمومة، شدَّت سيرغي من كُمّه بجنون.

ـ اسمعْ، يا فيرنر! أنا هنا أبكي عليه، وأتألّم، وهو يقوم بتمارينه الرياضية!

ـ على طريقة ميوللر؟ ـ ابتسم فيرنر.

قطّب سيرغي متذمّراً.

ـ عبثاً تضحك، يا فيرنر. إنني اقتنعتُ نهائياً...

أغرقَ الجميع بالضحك. وبينما كانوا يستمدون العزيمة والقوة من تبادل الحديث فيما بينهم، كانوا يستعيدون حالتهم السابقة شيئاً فشيئاً، غير أنهم لم يلحظوا ذلك أيضاً، وظنّوا أنهم ما زالوا كما كانوا. وفجأة، إذا بفيرنر يقطع الضحك، وبجدية كاملة يقول لسيرغي:

ـ أنت على حقٍ، يا سيريوجا. أنت على حقٍّ تماماً.

ـ كلا، افهَموني، ـ ابتهج غولوفين. ـ طبعاً، نحن...

ولكنْ في هذه اللحظة طلبوا إليهم الرحيل. وكانوا في غاية اللطف إذ سمحوا لهم بأن يركب كل اثنين منهم عربة كما يروق لهم. وعموماً كانوا لطيفين معهم جداً، بل وفوق الحدّ، ذلك إمّا أنهم أرادوا أن يعبّروا لهم عن موقفهم الإنساني، وإمّا أن يبيّنوا لهم أنهم غير موجودين إطلاقاً، وكلُّ شيء يجري من تلقاء نفسه. ولكنهم كانوا شاحبين.

ـ أنت، يا موسيا، اجلسي معه، ـ وأشار فيرنر إلى فاسيلي الواقف دون حراك.

ـ فهمت، ـ أومأت موسيا برأسها. ـ وأنت؟

ـ أنا؟ تانيا مع سيرغي، وأنت مع فاسيا... أنا وحدي. هكذا لا بأس، فأنا لا أستطيع، أنت تعرفين.

ولمّا خرجوا إلى الساحة صفعت الظلمةُ الرطبة وجوهَهم وعيونَهم بنعومة،

ولكنْ بدفء وقوّة، وأذهلتهم، وفجأة اخترقت الأجساد الراعشة كلّها بلطفٍ وطهّرتها. كان من الصعب التصديق بأن هذا الشيء المدهش ما هو إلا هواء الربيع، هواء دافئ ورطيب. وفاحت رائحة الثلج الآخذ بالذوبان في الليل الربيعي الحقيقي البديع منتشرة في المدى اللامحدود، وكانت قطرات المطر تتساقط سريعة وكثيفة، تتعاقب واحدة إثر أخرى لتعزف معاً أغنية متناغمة رنانة. ولكنْ إذا بقطرة في هذه الأثناء تشذّ فجأة عن الصوت المتناغم فيختلط كل شيء في دفقة مرح، في فوضى عجولة. ثم تسقط بقوّةٍ قطرةٌ كبيرة، صارمة فتعود الأغنية الربيعية العجولة تعزف برهافة ورنين. وكان يخيم على المدينة، وعلى أسطح القلعة وهْجٌ شاحب ينبعث من الأضواء الكهربائية.

ـ أ ـ واخ! ـ أطلق سيرغي غولوفين تنهيدة عريضة وحبس أنفاسه كمن كان ضنيناً بأن يُخرِج من رئتيه هذا الهواء العليل البديع.

ـ هل هذا الطقس منذ وقت طويل؟ ـ استفسر فيرنر. ـ إنه الربيع تماماً.

ـ هذا يومه الثاني فقط ، ـ جاءه جواب تحذيري ومهذّب. ـ أمّا قبل ذلك فكانت أكثر الأيام قارسة البرد.

وتقاطرت عربات مظلمة تتهادى واحدة تلو أخرى، فأخذتهم أزواجاً ومضت في الظلام، باتجاه مصباح كان يتمايل تحت البوّابة. وأحاط جنود الحراسة كلّ عربة بظلالهم الرمادية، وراحت حدوات خيولهم تدق الأرض متناغمة أو تخفق في الثلج البليل.

عندما انحنى فيرنر وهو يهمّ بدخول العربة قال شرطيٌّ بطريقة غير محددة:

ـ هناك شخص آخر مسافر معك.

تعجّب فيرنر:

ـ إلى أين؟ إلى أين هو مسافر؟ آخ، نعم! شخص آخر؟ ومن هو؟

فصمت الشرطي. حقاً، كان في زاوية العربة، في العتمة، شيء صغير لا يتحرّك ولكنه حيٌّ. وتحت الشعاع المائل من المصباح لمعت عينٌ مفتوحة. وبينما كان فيرنر يجلس صدم برجله ركبتَه.

ـ عفواً، يا رفيق.

لم يردّ الآخر. فقط عندما انطلقت العربة، سأل فجأة متلعثماً بلغة روسية مكسّرة:

ـ من أنت؟

ـ أنا فيرنر، محكوم بالإعدام شنقاً بسبب محاولة اغتيال ن.ن. وأنت؟

ـ أنا يانسُن. لا أريد أن يشنقوني.

كانا مسافرين للمثول بعد ساعتين أمام حضرة السر العظيم المجهول، للرحيل من الحياة إلى الموت، فتمّ التعارف بينهما. كانت الحياة والموت يسيران على طريقين في وقت واحد. وحتى النهاية، حتى أدقِّ التفاصيل المضحكة والسخيفة ظلّت الحياة حياةً.

ـ وماذا فعلت، يا يانسُن؟

ـ ذبحتُ بالسكين من كنت أشتغل عنده. لأسرق ماله.

بدا من صوت يانسُن أنه يغفو. وفي الظلام عثر فيرنر على يده الذابلة فشدَّ عليها. وبالذبول نفسه سحب يانسُن يده.

ـ هل أنت خائف؟ ـ سأله فيرنر.

ـ لا أريد.

صـمَتا. ومرة أخرى عثر فيرنر على يد الإستوني وضـغط عليها بقوة بين كفَّيه الجافّتين الســاخنتين. كانت مستلقية دون حراك، مثل خشبة، غير أن يانسُن لم يحاول أن يسـحبها بعد ذلك. كانت العربة ضـيِّقة وجوُّها خانق، تفوح فيها رائحة معطف عسـكري، وشـيء متعفِّن، وزبلٍ وجلدِ جزمـةٍ رطبة. وكانت أنفاسـ الشرطي الفتيّ الجالس قُبالة فيرنر تنبعث نحوه حارّة، خَليطاً من بصـل وتبغ رخيص. غير أنَ هواء حادّاً ونقيّاً كان يتسرّب عبر شقوق ما، ولذلك كان الإحســاس بالربيع في هذا الصندوق الصغير، الخانق، المتحرِّك أقوى ممّا هو في الخــارج. كانت العربــة تنعطف تارة إلى اليمين وتارة إلى اليســار، وتارة كأنها تتراجــع إلى الوراء. وخُيِّل لهم أحياناً أنهم لسـببٍ ما يدورون في مكانٍ واحد منذ ساعات. في البداية كان يتسرّب عبر الستائر السميكة المسدلة على النوافذ ضـوءُ كهرباء مشوبٌ بشيء من الزرقة؛ ثم أظلمت فجأة بعد أحد المنعطفات، وبذلك فقط أمكنهم أن يكتشـفوا أنهم دخلوا شوارع الأطراف المقفرة وباتوا يقتربـون من محطة «س» للقطارات. وأحياناً عند المنعطفات الحادّة كانت ركبة فيرنر الحيّة المنثنية تصـطدم بمـودّة بركبة الشرطي الحية المنثنية أيضـاً، وكان من الصعب التصديق بالإعدام.

ـ إلى أين نحن مسافرون؟ ـ سأل يانسُن فجأة.

كان رأسـه يعاني من دَوَار خفيف بسـبب الالتفافات المستمرة وقتاً طويلاً وهو في صندوق مظلم، فأحسَّ بشيء من الغثيان.

ردَّ فيرنر على السـؤال وزاد الضـغط على يد الإستوني. كان يريد أن يقول شيئاً وِدّيّاً ولطيفاً للغاية لهذا الإنسان الصغير الناعس، وكان قد أحبّه كما لم يسبق له في حياته أن أحبَّ أحداً من قبلُ.

ـ أيّها الغالي، يبدو أنك لست مستريحاً في جلوسك. تزحزحْ إلى هنا، نحوي.

صمت يانسُن قليلاً وأجاب:

ـ شكراً. أنا مستريح. وأنت أيضاً سيشنقونك؟

ـ أيضاً! ـ بمرح غير متوقَّع، بضحك تقريباً، أجاب فيرنر ونفض يده بطريقة فيها بساطة واستهتار. وكأن الحديث يدور حول مقلبٍ سخيف وتافه يريد أن يلعبه معهما أناس لطفاء، ولكنهم مضحكون جداً.

ـ عندك زوجة؟ ـ سأله يانسُن.

ـ كلا. أيُّ زوجة! إنني وحيد.

ـ وأنا أيضاً وحيد. وحيدة، ـ صحح يانسُن بعد أن فكّر قليلاً.

وبدأ فيرنر يشعر بدَوار في رأسه. وكان يخيَّل له في بعض الدقائق أنهم مسافرون إلى أحد الأعياد. شيء غريب، ولكنّ الذاهبين إلى الإعدام كلّهم تقريباً كانوا يشعرون بهذا الشعور نفسه، وكانوا، فضلاً عن الحزن والخوف، مسرورين على نحوٍ غامض لهذا الشيء غير العادي الذي سوف يحدث الآن. كان الواقع يتلذّذ بالجنون، والموتُ المقرون بالحياة يولّد الأشباح. وهناك احتمال كبير أن تكون الرايات ترفرف على البيوت.

ـ لقد وصلنا! ـ قال فيرنر بفضول ومرح عندما توقفت العربة، وقفز منها بخفّة. إلا أن المسألة طالت مع يانسُن. فقد عاند بصمت وذبول شديد غير راغب بالخروج. ما إن يقبض على ذراع المقعد حتى يفتح الشرطي أصابعه الضعيفة ويسحب يده. ثم يعود يتشبَّث بالزاوية، بالباب، بالعجلة العالية، ولكنه لا يلبث أن يُرخي يده حالاً ما إن يبذل الشرطي قليلاً من الجهد. حتى إنه لم يكن يتشبّث، بل إن يانسُن الصامت كان على الأرجح يمدّ يده إلى كل شيء، وكانت تُسحَب بسهولة وبغير عناء. وأخيراً قام.

لم يكن هناك رايات. كانت محطة القطارات كما تكون في الليالي معتمة، خاوية وليس فيها حياة. لقد توقفت قطارات الركاب عن الحركة، أمّا ذلك القطار الذي يقف صامتاً على السكة بانتظار هؤلاء الركاب فلم يكن بحاجة لأضواء

ساطعة، ولا لحركة زائدة. وفجأة أحس فيرنر بالضجر. لم يشعر بالخوف ولا بالحزن، وإنما شعر بضجرٍ هائل، مديد، بضجرٍ منهِك يدفع إلى الرغبة بالذهاب إلى مكان بعيد للاستلقاء وإغماض عينيه بقوّة. وتمطّى فيرنر وتثاءب طويلاً، فتمطّى يانسُن ثم تثاءب بسرعة وعدّة مرّات.

ـ ليتهم يُسرعون! ـ قال فيرنر بتعب.

عندما كان المحكومون على رصيف السكة الخالي من الناس، المطوّق بالجنود، يسيرون إلى المقطورات الباهتة الأضواء، وجد فيرنر نفسه بمحاذاة سيرغي غولوفين، فأشار هذا بيده جانباً وبدأ يتكلَم، ولم يكن مسموعاً من كلامه بوضوح إلا كلمة «الفانوس»، فيما غرقت نهاية الكلام في تثاؤبٍ متعَبٍ مديد.

ـ ماذا تقول؟ ـ سأله فيرنر وهو يجيب متثائباً أيضاً.

ـ الفانوس. في الفانوس، ـ قال سيرغي.

التفت فيرنر فوجد أن مصباح الغاز يبعث دخاناً قويّاً في الفانوس حقّاً، وقد اسودّت أعالي الزجاج.

ـ نعم، إنه يدخِّن.

وفكّر فجأة: «وماذا يهمّني إن كان مصباح الغاز يبعث دخاناً، ما دام...». ولعلّ ذلك هو ما كان يفكّر فيه سيرغي أيضاً. فقد ألقى نظرة سريعة على فيرنر واستدار بوجهه عنه. إلا أن كليهما توقّفا عن التثاؤب.

مشى الجميع حتى المقطورات كلٌّ بمفرده، ووحده يانسُن من اقتادوه شابكين أيديهم تحت إبطيه. فقد حاول في البداية أن يتشبّث بالأرض بقدميه كمن التصق نعلاه بخشب الرصيف، ثم ثنى ركبتيه وتعلّق محمولاً بأيدي رجال

الشرطة، يجرّ رجليه مثل رجل شـديد السُّكْر ورأسا حذائه يخدشان الخشب. وقد أمضوا وقتاً طويلاً في حشره عبر الباب، ولكنْ بصمت.

مشـى فاسيلي كاشيرِن بمفرده أيضـاً، مقلِّداً حركات رفاقه بغموض، فقد كان يفعل كل شيء على نحو ما يفعلون. ولكنه تعثّر وهو يصعد إلى المقطورة فأخذه الشرطيُّ من يده ليسـنده. ولكنّ فاسيلي ارتعد بقوّة وصرخ بصوت ثاقب وهو ينتر يده:

ـ آي!

ـ فاسيا، ماذا أصابك؟ ـ اندفع فيرنر نحوه.

صمت فاسيلي وارتعد بقوّة. فأوضح الشرطي المرتبك، بل والمنزعج:

ـ أردت أن أسنده، وإذا به...

ـ هيّا، يا فاسـيا، سـوف أسـندك، ـ قال فيرنر وأراد أن يأخـذه من يده. غير أن فاسيلي نتر يده مرة أخرى، وصرخ بصوتٍ أعلى:

ـ آي!

ـ فاسيا، هذا أنا، فيرنر.

ـ أعرف. لا تلمسْني. سأصعد وحدي.

ودخـل إلى المقطورة وحده وهو يرتعد، فجلس في الزاوية. وانحنى فيرنر على موسيا وسألها بصوتٍ خفيض، مشيراً بعينيه إلى فاسيلي:

ـ وكيف؟

ـ حالته سيّئة، ـ أجابت موسيا بصوت خفيض أيضاً. ـ لقد مات. قل لي، يا فيرنر، هل الموت موجود؟

ـ لا أعرف، يا موسيا، ولكني أظنّ أنه غير موجود، ـ أجاب فيرنر بجدّيّة وتفكّر.

ـ هذا ما كنت أظنه. وهو؟ لقد شبعتُ عذاباً معه في العربة، كأني كنت مسافرة مع ميت.

ـ لا أعرف، يا موسيا. لعلّ الموت موجود في نظر البعض. موجود موقّتاً، ثم لا يعود موجوداً إطلاقاً. فقد كان في نظري موجوداً، أمّا الآن فلا وجود له.

وتضرّجت وجنتا موسيا بالحمرة بعد أن كان قد شابهما بعض الشحوب:

ـ كان موجوداً، يا فيرنر؟ كان موجوداً ؟

ـ كان موجوداً، أمّا الآن فلا. مثلما هو في نظرك.

تعالى ضجيج في باب المقطورة. ودخل ميشكا الغجري، تدقّ كعباه الأرضَ بصوتٍ عالٍ، وهو يصق. فجال بعينيه وتوقّف معانداً.

ـ لا توجد أماكين[١٤] هنا، يا شرطي! ـ صرخ مخاطباً الشرطيَّ المنهَك الذي كان ينظر إليه بغضب. ـ هاتِ لي مكاناً مريحاً، وإلا فإنني لن أسافر، اشنقني هنا، على عمود الفانوس. وهذه العربة أيضاً، أولادَ الكلب، هل هذه عربة؟ إنها جَوف شيطان، وليست عربة!

ثم أحنى رأسه فجأة، ومطّ رقبته ودخل بهذه الهيئة ماشياً إلى الأمام نحو الآخرين. وأطلّت من إطار شعره الأشعث على وجهه ولحيته عينان ترسلان نظرة وحشية، حادّة، وتعبيراً مشوباً بالجنون.

١٤– بدلاً من أماكن، حفاظاً على تكسير اللغة، كما يتكلّم الغجري. ـ م.

ـ آـ ا ! الســادة ! ـ مَطّ صــوته. ـ هكذا إذاً. ســلاماً، يا بيك ! ومدَّ يده بقوّة إلى فيرنــر وجلس قُبالته. ثم انحنى مقترباً منه وغمــز بإحدى عينيه ومرَّر يده على رقبته بسرعة.

ـ أنتم أيضاً ؟ آ ؟

ـ أيضاً ! ـ ابتسم فيرنر.

ـ أحقّاً سيشنقونكم كلُّكم؟

ـ كلُّنا.

ـ أـ و ـ و ـ و ! ـ كشّر الغجري وهو يتفحّص الجميع بعينيه، وتوقّف بنظره لحظة أطول على موسيا ويانسُن. وعاد فغمز فيرنر:

ـ اغتيال الوزير؟

ـ اغتيال الوزير. وأنت ؟

ـ أنا، يا بيك، لسبب آخر. أيَن أنا من الوزير! أنا، يا بيك، مجرم، هذا أنا. قاتل. لا بأس، يا بيك، تزحزحْ، أنا لم أدخل حِماكم بإرادتي. في العالم الآخر ستكون الأماكن كافية للجميع.

وبطريقة وحشية تفحَّص الجميع بنظرةٍ باحثة، مرتابة، من تحت شعره المتشابك. ولكن الجميع كانوا ينظرون إليه بجدّيةٍ، بل وبشفقةٍ واضحة صامتين. ثم كشَّر، وبسرعة رَبَتَ على ركبة فيرنر عدَّة مرّات.

ـ ها ـ كذا، يا بيك! كما تقول الأغنية:

فلا تضجّي، أمَّنا، غابتَنا الخضراء.

ـ لماذا تناديني بـ البيك، ما دمنا كلّنا...

ـ صـحيح، ـ وافق الغجري بسرور. ـ وأيّ بيك أنت ما دمتَ سـوف تُشنَق إلى جانبي! هذا هو البيك، ـ وأشـار بإصبعه إلى الشرطي الصَّموت. ـ هه، وهذا الـ... كذا ليس أسوأ من صاحبنا، ـ وأشار بعينه إلى فاسيلي. ـ يا بيك، آ يا بيك، هل أنت خائف؟

ـ بسيطة، ـ أجاب لسانه الذي يتحرَّك بصعوبة.

ـ أيّ بسـيطة هـذه. ولكـنْ لا تخجل، فلا حاجة هنا للخجـل. الكلب وحده يلوِّح بذيله ويكشِّر عن أنيابه عندما يقودونه إلى المشنقة، أمّا أنت فإنسان. ومَن هذا الأهبل؟ أليس من جماعتكم ؟

وبسرعة تقافزت عيناه، وراح يبصـق لُعابه الحلو السيّال بفحيح ودون توقُّف. أمّا يانسُـن، الملتصـق بالزاوية كومةً بـلا حراك، فقد هزّت حركـة خفيفة منه جناحَي طاقيّته الفرو المتسلِّخة، إلا أنه لم يُجِب بشيء. فأجاب عنه فيرنر:

ـ هذا ذبح الرجلَ الذي كان يعمل عنده.

ـ يا إلهي ! ـ تعجَّب الغجري. وكيف يُسمح لأمثاله بأن يذبحوا الناس!

كان الغجري ينظر ورْباً إلى موسيا منذ وقتٍ طويل، وإذا به الآن يلتفت بسرعة ويثبِّت نظره عليها بحدّة واستقامة.

ـ آنسـة، يا آنسـة ! ماذا أصابك ؟ خدّاها أحمران وتضـحك. انظرْ، حقاً إنها تضـحك، ـ وقبض على ركبة فيرنر بأصـابعه القوية كأنها مـن حديد. ـ انظرْ، انظرْ !

تضرّجت موسيا حمرة، وبابتسامة يشوبها الارتباك نظرت إلى عينيه الحادَّتين، المجنونتين قليلاً، المتوسِّلتين بثقل ووحشية.

صمت الجميع.

كانت تصـدر عن العجلات طقطقة متقطِّعة دائمـة، والمقطورات تتقافز على

السكة الضيقة وتجري باجتهاد. وإذا بالقطار، عند منحنى أو تقاطع، يرسل صفيراً ضعيفاً مديداً، كأن السائق كان خائفاً أن يدهس أحداً. وكان غريباً أن يخطر على البال أن إعدام الناس ينطوي على قدْر كبير من اللباقة البشرية العادية، ومن الاهتمام، والجدية يجعل هذا الشيء الأكثر جنوناً على الأرض يجري بهذه الطريقة العاقلة، البسيطة. كانت المقطورات تسير مسرعة، يجلس فيها الناس مثلما يجلسون دائماً، مسافرون مثلما يسافرون عادة؛ وستأتي بعد ذلك محطة، وكما هو الأمر دائماً «سيتوقف القطار فيها خمس دقائق».

وعندئذ يأتي الموت ـ الأبدية ـ السرُّ العظيم.

١٢. الوصول

كانت المقطورات جادّة في المسير.

لقد عاش سيرغي غولوفين عدة سنوات مع أهله في بيت صيفي يقع بالقرب من هذا الطريق الذي كثيراً ما سافر فيه في الليل والنهار وكان يعرفه جيّداً. وإذا ما أغمض عينيه يستطيع أن يظنَّ أنه الآن عائد إلى بيته، لقد تأخر قليلاً عند معارفه، وها هو عائد في القطار الأخير.

- لقد اقتربنا الآن، - قال بعد أن فتح عينيه ونظر إلى النافذة العاتمة، المشبّكة بالحديد، والتي لا تشير إلى شيء.

لم يأتِ أحد بأي حركة، و لم يُجب، ووحدَه الغجري بصق لعابه الحلو مرة إثر مرّة. وراح يجيل عينيه في المقطورة يتفحّص النوافذ، والأبواب، والجنود.

- بَرْد، - قال فاسيلي كاشيرِن بشفتين مطبَقتين كأنهما متجمِّدتان حقّاً؛ وخرجت هذه الكلمة من فمه هكذا: باادْ.

تململت تانيا كوفالتشوك.

- إليك منديلي، اعقدْه حول رقبتك. إنه منديل دافئ جداً.

- رقبتي؟ - سأل سيرغي بطريقة غير متوقّعة وخاف من سؤاله.

ولكنْ لمّا كان الجميع يفكّرون بالشيء نفسه فإنه لم يسمعه أحد، وكأنه ما من أحد قال أيَّ شيء، أو كأن الجميع ردّوا في الحال بتلك الكلمة نفسها.

- لا بأس، يا فاسيا، اعقدْه، إنه سيدفِّئك، - نصحه فيرنر، ثم التفت إلى يانسُن، وسأله بلطف:

ـ وأنت، أيها الغالي، ألا تشعر بالبرد، آ ؟

ـ قد يكون يريد أن يدخِّن، يا فيرنر. أيُّها الرفيق، لعلَّك تريد أن تدخِّن؟ ـ سألته موسيا. ـ معَنا دخّان.

ـ أريد.

ـ إعطِه سيجارة، يا سيريوجا، ـ ابتهج فيرنر.

وبينما كان سيريوجا يُخرج سيجارة، نظر الجميع بحبٍّ إلى أصابع يانسُن وهي تتناول السيجارة، وكيف يشتعل عود الثُّقاب، ومن فم يانسُن يخرج دُخانٌ أزرق.

ـ شكراً، ـ قال يانسُن. ـ تمام.

ـ يا للغرابة ! ـ قال سيرغي.

ـ ما وجه الغرابة ؟ ـ التفت إليه فيرنر. ـ ما وجه الغرابة؟

ـ هذه: السيجارة.

وأمسك بسيجارة، بسيجارة عاديّة، بين أصابعه العاديّة الحيّة، وهو شاحب ينظر إليها متعجباً، بل وكأنما مرعوباً. وحدّق الجميع بعيونهم في السيجارة الرفيعة التي كان يتصاعد من نهايتها شريطُ دُخان متعرِّج أزرق يُبعِده النَّفَس جانباً، وإلى الرماد وهو يتشكّل قاتماً. كانت آخذة بالانطفاء.

ـ لقد انطفأت، ـ قالت تانيا.

ـ أجل، انطفأت.

ـ فليأخذها الشيطان، ـ قال فيرنر، وقطَّب وهو ينظر إلى يانسُن والسيجارةُ في يده العالقةِ في الهواء كأنها ميّتة. وفجأة التفت الغجري بسرعة وانحنى مقترباً

بوجهه من وجه فيرنر، وقلَب عينيه مثل حصان، وهمس له:

ـ يا بيك، ما رأيك في أن... أقتل الحرّاس، آ؟ هل أجرّب؟

ـ لا لزوم، ـ أجابه فيرنر بهمس أيضاً. ـ اشربْ حتى النهاية.

ـ وليش؟ في أثناء العراك يكون كل شيء أكثر مرحاً، آ؟ أضربه ويضربني، وإذا به لا ينتبه إلا وقد قُضيَ عليه. كأنه لم يمت.

ـ كلا، لا لزوم، ـ قال فيرنر والتفت إلى يانسُن: ـ أيها الغالي، لماذا لا تدخّن؟

وفجأة تغضّن وجه يانسُن المترهِّل بائساً، وكأن أحداً شدَّ في الحال خيطاً يحرِّك تجاعيده فتقلّصت كلّها.

وكما في المنام شهق يانسُن باكياً دون دموع، بصوتٍ جافٍّ، كريه تقريباً:

ـ لا أريد أن أدخِّن. آ ـ هـ ـ ها! آ ـ هـ ـ ها! لا أريد أن يشنقوني! آ ـ هـ ـ ها! آ ـ هـ ـ ها! آ ـ هـ ـ ها!

فتململوا بالقرب منه. وراحت تانيا كوفالتشوك، وهي تبكي بدموع غزيرة، تمسِّد كمّه، وعدَّلت له جناحي طاقيّته الفرو المتهدِّلة، المتسلِّخة:

ـ أيها الغالي، يا عزيزي، لا تبكِ، أيها الغالي! أيها التعيس الصغير!

كانت موسيا تشيح بنظرها جانباً. والتقط الغجري نظرتها وكشّر.

ـ حضْرَتُه غريب الأطوار! يشرب الشاي وبطنه بارد، ـ قال بضحكة ساخرة قصيرة. غير أنه هو بالذات ازرقّ وجهُه حتى بات أسود مثل آنية من حديد، واصطكّت أسنانه الكبيرة الصفراء.

وفجأة ارتعدت المقطورات وأبطأت سيرها بوضوح. ونهض الجميع قليلاً، ما عدا يانسُن وكاشيرِن، ثم عادوا بالطريقة نفسها إلى الجلوس من جديد.

ـ المحطة ! ـ قال سيرغي.

بات التنفّس عسيراً جداً، وكأن المقطورة أُفرغت تماماً من الهواء في الحال. كان القلب المتضخم يمزّق الصدر، ويقف في الحنجرة بالعرض، والجنون يتراكض مرعوباً صارخاً بكامل صوته الدامي. وكانت العيون تنظر إلى تحت، إلى الأرض التي ترتجف، فيما الآذان تسمع كيف يتزايد بطء دوران العجلات، وكيف تنزلق ثم تعود إلى الدوران من جديد، وفجأة همدَت.

توقّف القطار.

عندها خيّم عليهم حلُمٌ. لم يكونوا يشعرون بخوف شديد، وإنما بشيء شبحي، بغيبوبة وبشيء غريب عليهم بعض الشيء. فقد ظل الحالم نفسُه حيادياً، ووحدَه شبحُه كان يتحرك من غير ما هدف، يتكلّم من غير ما صوت، يتعذّب من غير ما عذاب. وخرجوا من المقطورة وهم في الحلُم، وتفرّقوا أزواجاً، واستنشقوا هواء عليلاً للغاية، ربيعياً، يهبُّ من الغابات. وفي الحلُم عاند يانسُن ببلادة وضعف فجَرّوه من المقطورة صامتين.

هبطوا الدّرَجات.

ـ هل سنذهب مشياً؟ ـ سأل أحدهم بمرح تقريباً.

ـ المكان قريب، ـ أجاب آخر بمرحٍ مماثل أيضاً.

ثم ساروا جماعة كبيرة، سوداء، صامتة وسط الغابة على طريق سيئة الرصف، لينة وربيعية. وكان يهبّ من الثلج في الغابة هواء عليل قويّ، وتنزلق القدم أحياناً وتغطس في الثلج، وتتعلّق الأيدي برفيق رغماً عنها؛ وكان الحرّاس يتنفّسون بصوتٍ عالٍ، ويمشون بصعوبة في الثلج البكر على جانبي الطريق. وقال أحدهم بصوت غاضب:

ـ لم يستطيعوا أن ينظِّفوا الطريق. فلْنَتَدَعْكَلْ في هذا الثلج.

ـ لقد نظّفوها، جنابَكم. ولكنه وقتُ ذوبان الثلوج، ولا حيلة في ذلك.

استعادوا وعيهم، ولكنْ ليس كامـلاً، وإنما أجزاء منه، قِطعـاً غريبة. وهذا ما أكّده الذهن فجأة بطريقةٍ عملية:

«حقّاً، لم يستطيعوا إصلاح الطريق».

تارة كان يهمد كل شـيء، ولا يبقى إلا حاسّـة الشـمّ. فرائحة الهواء، والغابة، والثلـج الذائب تفوح بجلاء لا يطاق. وتارة يغدو كل شـيء فائق الوضـوح: الغابة، والليل، والطريق، وأنهم الآن في هذه الدقيقة سوف يُشنَقون. وومضت أجزاء من حديث موجز مهموس:

ـ الرابعة قريباً.

ـ قال إننا سنسافر باكراً.

ـ يبزغ الضوء في الخامسة.

ـ أجل، في الخامسة. فقد كان يجب...

توقّفـوا في العتمة، في المرج. على مقربة منهم، وراء أشـجار متباعدة، شـفّافة كما تكون الأشـجار في الشـتاء، كان يتمايل فانوسـان علـى عمودين، هناك حيث كانت المشانق منصوبة.

ـ لقد أضعتُ واقية حذائي، ـ قال سيرغي غولوفين.

ـ ماذا؟ ـ لم يفهم فيرنر.

ـ أضعت واقية الحذاء. إنّي أشعر بالبرد.

ـ وأين فاسيلي؟

ـ لا أعرف. إنه واقف هناك.

كان فاسيلي واقفاً في الظلام لا يتحرّك.

ـ وأين موسيا؟

ـ أنا هنا. أهذا أنت، يا فيرنر؟

شرعـوا يتلفّتون متفاديـن النظر إلى الجهة التي اسـتمر يتمايل فيها الفانوسـان بصمت، وبطريقة مفهومة جداً. وإلى اليسار كانت الغابة العارية كأنها تصطبغ باللون الأحمر، وكان يلوح شـيء كبير، أبيض، منبسط. وكان يهبُّ من هناك هواء رطيب.

ـ إنه البحر، ـ قال سـيرغي غولوفين وهو يتنفّس بعمقٍ ويستنشق الهواء بفمه. ـ هناك البحر.

وردّت موسيا بصوتٍ رنّان:

ـ حبّي واسع كالبحر!

ـ ماذا تقولين، يا موسيا؟

ـ حبّي واسع كالبحر، لا تستطيع أن تتسع له ضفاف الحياة.

ـ حبّي واسع كالبحر، ـ ردّد سيرغي ساهماً، متأثّراً بالكلمات ورنين الصوت.

ـ حبّي واسـع كالبحر... ـ ردّد فيرنر وتعجّب بسرورٍ فجأة: ـ موسكا! كم أنتِ فتيّةٌ بعدُ!

وفجأة سمع فيرنر بالقرب من أذنه تماماً همساً حارّاً لاهثاً من الغجري:

ـ بيـك، يـا بيك. الغابـة، آ؟ يا إلهي، مـا أروعَها! وما هذا الـذي هناك، عند

الفانوسين، أليست المشانقَ، يا تُرى؟ ما هذا، آ؟

نظر فيرنر فرأى الغجريّ يترنّح من الخدَر الذي يسبق الموت.

ـ حان وقت الوداع، ـ قالت تانيا كوفالتشوك.

ـ انتظري، لم يُتْلَ قرارُ الحكْم بعد، ـ أجاب فيرنر. ـ وأين يانسُن؟

كان يانسُن مستلقياً على الثلج منهمكاً بشيءٍ ما حوله. وفجأة فاحت رائحة نشادر حادّة.

ـ وماذا هناك، يا دكتور؟ ـ سأل أحدهم بنفاد صبر.

ـ لا شيء، إنه إغماء بسيط. افركوا أذنيه بالثلج. لقد بدأ يصحو، يمكنكم تلاوة قرار الحكْم.

سقط ضوء الفانوس الخفيّ على الورقة واليدين البيضاوين من دون قفّازين. وكانت ترتجف الورقة واليدان؛ كان يرتجف الصوت أيضاً:

ـ ربّما لا لزوم لتلاوة قرار الحكْم، أيها السادة، فأنتم تعرفونه؟ ماذا تقولون؟

ـ لا تتلوه، ـ أجاب فيرنر عن الجميع، فانطفأ الفانوس سريعاً. كذلك رفض الجميع حضور الخوري. فابتعد خيّال عريض أسوَد صامتاً، واختفى. يبدو أن الفجر كان آخذاً بالبزوغ، فقد ابيضّ الثلج، وارتسمت قامات الناس قائمة، وظهرت الغابة أقلّ شجراً، وأكثر كآبة وبساطة.

ـ أيها السادة، ينبغي أن تمشوا وراء بعضكم اثنين اثنين. اصطفّوا أزواجاً كما تشاءون، ولكنْ أرجوكم أن تسرعوا.

أشار فيرنر إلى يانسُن الذي كان قد وقف على رجليه يسنده شرطيّان:

ـ أنا سأمشي معه، أمّا أنت، يا سيريوجا، فخذ فاسيلي. سِيرا أمامنا.

ـ حسناً.

ـ أنا وأنتِ، يا موسِتشكا؟ ـ سألتها كوفالتشوك. ـ هيّا، فلنتبادلْ قبلة.

تبادلـوا القبلات بسرعة. كان الغجريّ يقبّل بقوّة تجعل الآخر يشـعر بأسـنانه. أمّا يانسُن فكان يقبِّل بلطف وفتور، بفمٍ نصفِ مفتوح، فلم يكن ظاهراً، على أية حال، أنه يدرك ما الذي يفعله. وعندما كان سـيرغي غولوفين وكاشيرِن قد ابتعدا بضعة خطوات، توقّف كاشيرِن فجأة وقال بصوتٍ عالٍ وواضح، ولكنه غريب عنه تماماً وغير مألوف:

ـ وداعاً، يا رفاق!

ـ وداعاً، يا رفيق! ـ صرخوا ردّاً عليه.

ذهبوا. خيّم الهدوء. وتوقّف الفانوسـان وراء الأشـجار عـن الاهتزاز. كانوا ينتظرون صيحة، صوتاً، أيَّ قدْر من الضجيج، غير أن الهدوء كان مخيّماً هناك، كما هنا، وكان الفانوسان أصفرين لا يتحرّكان.

ـ آخ، يا إلهي! ـ قال أحدهم مستسلماً، بصوتٍ مبحوح. والتفتوا فرأوا الغجري يترنّح من الخدَر الذي يسبق الموت. ـ لقد بدأ الشنق!

أشـاحوا بوجوههـم، وعاد السـكون فخيّم من جديـد. كان الغجريّ يترنّح، ويقبض على الهواء بيديه:

ـ كيف هذا ! أيها السادة، آ؟ هل أظلّ وحدي ؟ مع الجماعة أهون. أيها السادة! ما هذا؟

وقبض على يد فيرنر بأصابع تشدّ وترتخي كأنها تلعب:

ـ يا بيك، أيها الغالي، كن معي أنت، آ؟ اعملْ معروفاً، لا ترفض !

أجاب فيرنر متألّماً:

ـ لا أستطيع، أيها الغالي. إنني معه.

ـ آخ، يا إلهي ! سأكون وحدي، إذاً. كيف ذلك ؟ أيها السادة!

خَطَت موسيا إلى الأمام وقالت بهدوء:

ـ امشِ معي.

تراجع الغجري مترنّحاً، وقلب عينيه المصوّبتين نحوها باستغراب كبير:

ـ معكِ؟

ـ نعم.

ـ أنتِ، هذه الصغيرة! ولا تخافين؟ خيرٌلي ، إذاً، أن أذهب وحدي. ما المشكلة !

ـ كلا، لا أخاف.

ـ هاه! ولكنني سفّاح، ألا تشمئزين منّي؟ وإلا فخير لك ألا تفعلي. أنا لن أغضب منك.

صمتت موسيا، وبدا وجهها في ضوء القمر الضعيف شاحباً وغامضاً. ثم فجأة وبسرعة اقتربت من الغجري، وطوّقت رقبته بيديها وقبّلته بقوّة على شفتيه. فأمسك كتفيها بأصابعه وأبعدها عنه قليلاً، وهزّها، وبتمطّقٍ قويّ قبّلها على شفتيها، وأنفها وعينيها.

ـ فلْنمشِ !

فجأة ترنّح أقرب الجنود، فارتخت يداه وسقطت بندقيّته منه. إلا أنه لم ينحنِ

ليرفعها، بل وقف لحظة دون حراك، ثم استدار بقوّةٍ، وسار مثل أعمى نحو الغابة عبر الثلج البِكر.

- إلى أين أنت ذاهب ؟ - همس آخرُ بذعرٍ. - قفْ !

ولكنه ظل على صمته ومضى بصعوبة يشقّ الثلج العميق. لعلّه تعثّر بشيء ما، فلوّح بيديه وسقط على وجهه. وظلّ منبطحاً على هذا النحو.

- ارفع البندقية، يا نتِن ! وإلا رفعتُها أنا ! - قال الغجري مهدِّداً. - إنك لا تعرف أصول الخدمة !

عاد الفانوسان يتمايلان بهِمّة من جديد. وجاء دور فيرنر ويانسُن.

- وداعاً، يا بيك ! - قال الغجريّ بصوتٍ عالٍ. - سنكون أصحاباً في العالم الآخر، فلا تُنكرْني عندما تراني. وجُدْ عليَّ أحياناً بشيء من الماء لأشرب، فأنا سأتضايق من الحرارة هناك.

- وداعاً.

- لا أريد، - قال يانسُن بفتور.

ولكنّ فيرنر أخذه من يده، فمشى الإستوني معه عدة خطوات من تلقاء نفسه، ثم شوهِد كيف توقّف وسقط على الثلج. فانحنوا فوقه، وأنهضوه وحملوه، فيما راح يتخبّط بضعفٍ بين الأيدي التي تحمله. لماذا لم يصرخ ؟ لعلّه نسيَ أن له صوتاً.

ومن جديد توقف الفانوسان المصفرّان بلا حراك.

- إذاً، فأنا وحدي، يا موسِنكا، - قالت تانيا كوفالتشوك بحزن. - لقد عشنا معاً، والآن...

ـ تانتشكا، يا غاليتي...

ولكن الغجريَّ تدخَّل بحرارة. فقال بسرعة وجدّيّة، وهو ممسكٌ بيد موسيا، وكأنه يخاف من أنه ما زال في وسعهم أن يحرموه منها:

ـ آخ، يا سيّدتي! أنت تستطيعين وحدك، أنت نفْسٌ طاهرة، أنت تستطيعين أن تذهبي وحدك أينما شئتِ. هل فهمتِ؟ أمّا أنا فلا. لأنني سفّاح... هل تفهمين؟ مستحيل عليَّ أن أذهب وحدي. سيقولون لي: إلى أين تحشر نفسك، أيها القاتل؟ فأنا كنت أسرق الخيل أيضاً، أي والله! أمّا معها، فأنا كما... مع رضيع، أنتِ تفهمين. ألَمْ تفهمي؟

ـ فهمتُ. ليكنْ، اذهبا. تعالي أقبّلك مرّة أخرى، يا موستِشكا.

ـ فلتتبادلا القبلات، فلتتبادلا القبلات، ـ قال الغجري يشجّع المرأتين. ـ هذا شأنكما، يجب أن يكون الوداع جيداً.

مشت موسيا والغجري. المرأة تمشي بحذر، تنزلق قدمها وهي، على جريِ عادتها، قابضة على تنورتها، والرجل يسندها متأبطاً ذراعها، يحميها ويتلمّس الطريق بقدمه، ويمضي معها إلى الموت.

توقّف الفانوسان. وأحاط السكونُ والفراغ بتانيا كوفالتشوك. والجنود صامتون، كلّهم رماديّون في النور العديم اللون الهادئ أوّل النهار.

ـ إنني وحدي، ـ نطقت تانيا فجأة وتنهّدت. ـ لقد مات سيريوجا، ومات فيرنر وفاسيا. وأنا وحدي. يا جنود، أيها الجنود. وحدي أنا. وحدي...

وأشرقت الشمس فوق البحر.

راحوا يضعون الجثث في صناديق. ثم نقلوها. جثثٌ ممطوطة الرقاب، عيونها محملقة بجنون، واللسان متورّم أزرق مثل زهرة مجهولة مخيفة، يتدلّى بين الشفاه

المنـدّاة برغوة الدم. عادت الجثث منقولة عبر نفس الطريق التي سـلكتها وهي حيّـةٌ في المجـيء إلى هنا. وكان الربيع علـى حالته في أثناء المجـيء ليّناً وعبِقاً، وكذلك كان طريّاً وقويّاً ثلجُ الربيع. وكانت واقية الحذاء التي أضـاعها سيرغي مبلّلة، مدعوكة وقد اسودّت في الثلج.

هكذا راح الناس يحيُّون شروق الشمس.

١٩٠٨

هذه قصة واحدة من كتاب الجنون

الصادر عن دار المدى

الكتاب للجميع

هكـذا نريده؛ إيماناً بكونـه قيمة تحتفظ بحجمها وفاعليتها مدى العصور.

واذ شـرعنا فعلاً بإنتاج هذه السلسلة من الكتب القيمة التي نشـرت خـلال العقود الماضية وتعذر وصولهـا إلى قارئ اليوم، فإنما نهـدف إلى إشاعة المعرفة وتيسير وسائلها وتمكين القـارئ من الوصول إلى الينابيـع الفكريـة ذات التأثير في حركة الثقافة وتاريخ الفكر، بأيسر السبل وأقل التكاليف.

ونأمل أن تكون سلسلة (الكتاب للجميع) إنجازاً فعلياً ووسيلة ميسرة تتيح للقارئ تكوين مكتبـة ذات مساحة منفتحة على مختلـف فـروع المعرفة بكلفـة لا تثقل عليه.

كل الأطراف المشاركة في هذا المشروع العربي متنازلة عن حقوقها لصالح القارئ.



سلسلة كتب شهرية
توزع مجانا
مع
السفير

سلسلة شعبية تعيد إصدارها

مؤسسة المدى
للإعلام والثقافة والفنون

